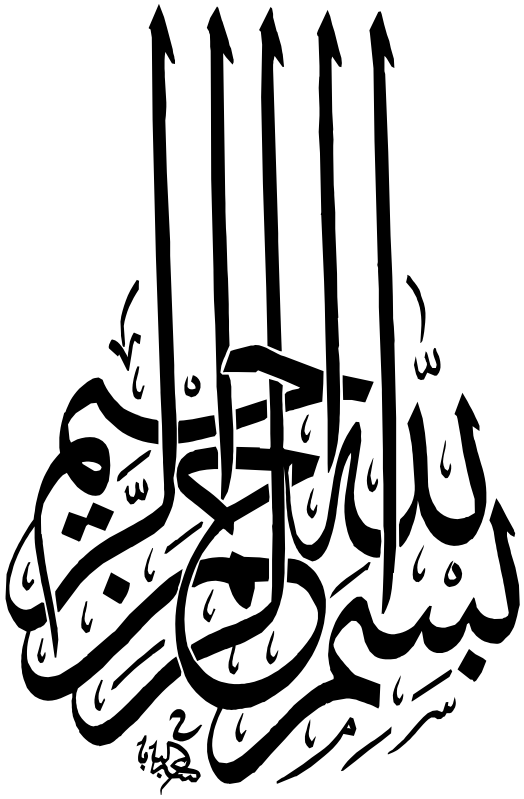
رؤية الشيخ الغزالي للتصوف ودوره وواقعه

عرض ودراسة

بقلم
د/ عبد الرافع عبد الحليم السيد الفقي
أستاذ مساعد بقسم الثقافة الإسلامية
كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة

رؤية الشيخ الغزالي للتصوف ودوره وواقعه ٢٣/ ٠٤/ ١٤٤٠



رؤية الشيخ الغزالي للتصوف ودوره وواقعه ٢٣/ ٠٤/ ١٤٤٠

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء، وإمام المرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحابته أجمعين .... وبعـد؛؛؛

فأهـل العلـم هـم أهـل المنزلـة العاليـة في الـدنيا والآخـرة، قـال الله تعـالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[1].

وقد أقرت المخلوقات جميعاً بعظمتهم وعلو قدرهم، ورفعتهم، لما لهم من أثر عظيم في حياتهم، وهناءتهم، وإجلال خالقهم وتعليم الناس أحكامه، يدل على ذلك قول النبي -ﷺ- في حديث: « **وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن طالب العلم ليستغفر له من في السماء والأرض، حتى الحيتان في الماء**»[2].

وبين النبي -ﷺ- أنهم أعدل الناس، وحماة البشرية وأطباؤها، يحفظون الدين والإنسان والأمة، وفي ذلك قال -ﷺ-: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»[3].

ومن كبار هؤلاء العلماء، فضيلة الشيخ محمد الغزالي- رحمه الله- الذي كان كما يصفه تلميذه فضيلة الدكتور القرضاوي «إنساناً رقيق القلب، قريب الدمعة، نقي السريرة، صافي الروح، حلو المعشر، باسم الثغر، موطأ الأكناف، عذب الحديث، سريع النكتة، بسيطاً متواضعاً، هيناً ليناً، بعيداً عن التكلف والتعقيد، والتظاهر والادعاء، تسبق العبرة إلى عينيه، إذا سمع أو رأى موقفا إنسانياً، ويهتز خشوعاً وتأثراً إذا ذكر الله والدار الآخرة، ولا يأنف أن يتعلم حتى من تلاميذه، يعترف لكل ذي موهبة بموهبته، لا يحسد ولا يحقد، يكره الظلم والتسلط على عباد الله، يقول بصراحة: «لا أحب أن أتسلط على أحد، ولا أن يتسلط عليَّ أحد»[4].

---

(١) سورة المجادلة: آية رقم ١١ .

(٢) أخرجه الترمذي في الجامع، رقم ٢٦٨٢، بتحقيق أحمد محمد شاكر وآخرين، ط المكتبة الإسلامية.

(٣) أخرجه الطحاوي في (مشكل الآثار)، ج١، ص١٦، تحقيق شعيب الأرناؤوط، ط٢، ١٤٢٧هـ مؤسسة الرسالة، بيروت، وصححه الألباني في تحقيقه لمشكاة المصابيح ، للخطيب التبريزى، ج١، ص٨٣، ط٢، المكتب الإسلامي- بيروت، ١٣٩٩هـ.

(٤) د/ يوسف القرضاوي (الشيخ الغزالي كما عرفته،)ط١، دار الشروق، القاهرة، ١٤٢٠هـ، ص ٨ .

إن شخصية الإمام الغزالي، ثرية، عظيمة الأدوار، بل كان مدرسة متكاملة، متميزة، من مدارس الدعوة والفكر والإصلاح، لها طابعها، وأسلوبها ومذاقها الخاص، وتحتاج إلى دراسات عدة، لإبراز خصائصها، ومواقفها وآثارها.

لذا أحببت أن أقدم هذه الدراسة المتواضعة عن رؤية الإمام للتصوف ودوره، وواقعه.

وصدق الإمام في قوله: «إننا لو غربلنا التراث الصوفي، وقدرنا جهود ابن القيم، وابن الجوزي، والغزالي، وابن عطاء الله السكندري وغيرهم، لأمكننا أن نخرج بحصيلة رفيعة القدر في مجال الخلق والتربية والسلوك، ولأمكننا أن نصوغ نصف العلوم الإنسانية في قالب إسلامي جميل ونافع».

وذكر أن «الدين يفقد جوهره حين ننهى علاقته بالقلب، وعلم القلب أو علم السلوك وجد في التصوف الإسلامي خواطره ومراحله، والمهم هو ضبطها بتعاليم الشريعة، ومنع العواطف السائلة الرجراجة من الانطلاق دون حدود»[1].

وقد قسمت هذه الدراسة إلى مقدمة و تمهيد، وخمسة مباحث، وخاتمة.

فالتمهيد قد احتوى على نبذة عن **سيرة الشيخ الإمام، الذاتية، والعلمية والدعوية.**

أما **المبحث الأول** فكان بعنوان «**أهمية الإيمان بشمول الإسلام وأهمية تكامل الشخصية المسلمة**».

وقسمته إلى مطلبين:

المطلب الأول: أهمية الإيمان بشمول الإسلام.

المطلب الثاني: أهمية تكامل الشخصية المسلمة.

وفيما يخص **المبحث الثاني:** فقد جعلته بعنوان: **أهمية علم التصوف واكتساب مقام الإحسان.**

وقسمته إلى مطلبين:

(١) الشيخ محمد الغزالي « علل وأدوية »، ط١١، دار الشروق ،٢٠١٣ ،القاهرة ، ١٨٨.

المطلب الأول: أهمية علم التصوف أو التزكية ودوره.

المطلب الثاني: ضرورة اكتساب مقام الإحسان.

والمبحث الثالث: عنوانه: **رصد الإمام مظاهر انحراف عند بعض المتصوفة.**

أما **المبحث الرابع** فقد جعلته بعنوان :**التصوف الصحيح ،أو الطريق الى الله، مراحله عند الشيخ،**

والمبحث الخامس بعنوان: **حكم ابن عطاء الله أحد نماذج التصوف الصحيح .**

ثم كانت الخاتمة وقائمة المراجع، والفهرس العام للبحث .

أسأل الله- عز وجل- أن يتقبل هذا العمل وأن يبارك فيه،

وينفع به، إنه- سبحانه- أكرم مسئول، وأفضل مأمول،

وصل اللهم على سيدنا محمد

وعلى آله وصحبه أجمعين.

التمهيد:

نبذة عن سيرة الشيخ الإمام، الذاتية، والعلمية والدعوية

رؤية الشيخ الغزالي للتصوف ودوره وواقعه ٢٣/٠٤/١٤٤٠

نبذة عن السيرة الذاتية والصفات الخلقية للشيخ محمد الغزالي

- هو محمد الغزالي أحمد السقا مرسي.

- وُلد ونشأ في قرية «نكلا العنب »، مركز إيتاي البارود، محافظة البحيرة، بدلتا مصر، يوم السبت، ٥ ذي الحجة سنة ١٣٣٥هـ، ٢٢ من سبتمبر سنة ١٩١٧م، وقد اختار له والده اسم: محمد الغزالي، تيمناً بحجة الإسلام أبي حامد الغزالي [١]، ولنزعة صوفية لدى الوالد، الذي رأى رؤيا، تضمنت بشرى بغلام اسمه محمد الغزالي، وكان والداه متدينين، من أهل القرآن، والإحسان والعطاء، ويذكر الشيخ الغزالي أنه برز إلى الدنيا «في كبوة من تاريخ الإسلام، وأيام كئيبة، كان الإنجليز فيها يحتلون مصر، كما احتلوا أقطاراً فيحاء من أرض الإسلام الجريح!. ومع الهزائم المرة التي أحرجت الآباء والأولاد، فإن المقاومة الشعبية كانت عامة، ورفض الاستسلام للغاصب الكفور يعم الأرجاء».

وبين أن قريته الصغيرة «نكلا العنب» بمحافظة البحيرة، قد شاركت في الثورة العامة ضد الانجليز، فقطعت أسلاك الهاتف، وأعلنت التمرد! .

وجاءت للقرية فرقة من جيش الاحتلال، وعسكرت أمام أحد المساجد، وفرض حظر التجول، وقتل أحد الفلاحين الذين لم يلتزموا بحظر التجول!.

كل هذه الوقائع رآها الإمام، وعلقت بذاكرته كما قال- رحمه الله-.

- أتم حفظ القرآن في العاشرة من عمره، وتلقى تعليمه الأزهري في المعهد الديني التابع للأزهر، في مدينة الإسكندرية، وحصل على الشهادتين الابتدائية عام ١٩٣٢م،

---

(١) أبو حامد الغزالي: هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، أبو حامد، حجة الإسلام، ولد (٤٥٠هـ = ١٠٥٨م) بخراسان، فيلسوف، متصوف، له نحو مئتي مصنف، ومن أشهرها: {تهافت التهافت- إحياء علوم الدين- الاقتصاد في الاعتقاد- مقاصد الفلاسفة- المنقذ من الضلال}، توفى (٥٠٥هـ = ١١١١م)

[يُنظَر: (الأعلام) للزركلي، (ج٧/ ٢٢، ٢٣، وينظر أيضًا: (معجم المؤلفين) لعمر رضا كحّالة، ج٣/ ٦٧١، مؤسسة الرسالة، ط١/ ١٤١٤هـ = ١٩٩٣م).

والثانوية عام ١٩٣٧م ويقول عن مرحلة دراسته في معهد الإسكندرية تسع سنوات، «إنها من أغلى أيام العمر»، ورغم صغر سنه كان يهتم بالأحوال العامة، ويكترث للمبادئ التي تقوم عليها شؤون السياسة والحكم، وقاد عدة مظاهرات داخل معهده لمصالح طلابية ووطنية، وتحمل ثمن ذلك... الخ. وفي ذلك قال:(إنني منذ نعومة أظافري أهتم بالأحوال العامة، وأكترث للمبادئ التي يعتمد عليها الحكم، وأتعشق الحرية والعزة، وأكاد أذوب إذا تورطت فيما يعاب، وأصادق بإخلاص، وأعادي الخصوم بنزاهة، وأتطلع إلى الصدارة، وأبذل ثمنها بطيب نفس» [(١)].

- ثم التحق بكلية أصول الدين بالقاهرة، وتلقى العلم على يد أعلام كبار، منهم: الشيخ عبد العظيم الزرقاني[(٢)]، والإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت[(٣)] والشيخ

(١) انظر « قصة حياة » مقتطفات من مذكرات الشيخ، ضمن مجلة « إسلامية المعرفة » عدد رمضان ١٤١٧هـ، يناير ١٩٩٧م، ص١٥٥-١٦٠.

(٢) محمد عبد العظيم الزرقاني: (٠٠٠ - ١٣٦٧ هـ =....- ١٩٤٨م) من علماء الأزهر بمصر. تخرج بكلية أصول الدين، وعمل بها مدرسا لعلوم القرآن والحديث. وتوفي بالقاهرة. من كتبه (مناهل العرفان في علوم القرآن - ط) و (بحث - ط) في الدعوة والإرشاد، انظر : الأعلام : لخير الدين الزركلي: ط١٥، دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م، ٦/ ٢١٠ .

(٣) محمود شلتوت: (١٣١٠ - ١٣٨٣ هـ = ١٨٩٣ - ١٩٦٣م) فقيه مفسر مصري. ولد في منية بني منصور (بالبحيرة)، وتخرج بالأزهر (١٩١٨) وتنقل في التدريس إلى أن نقل للقسم العالي بالقاهرة (١٩٢٧)، وكان داعية إصلاح نير الفكرة، يقول بفتح باب الاجتهاد. وسعى إلى إصلاح الأزهر فعارضه بعض كبار الشيوخ وطرد هو ومناصروه، فعمل في المحاماة (١٩٣١ - ١٩٣٥) وأعيد إلى الأزهر، فعين وكيلا لكلية الشريعة ثم كان من أعضاء كبار العلماء (١٩٤١) ومن أعضاء مجمع اللغة العربية (١٩٤٦) ثم شيخا للأزهر (١٩٥٨) إلى وفاته. وكان خطيبا موهوبا جهير الصوت. له ٢٦ مؤلفا مطبوعا، منها (التفسير) أجزاء منه في مجلد، ولم يتم، و (حكم الشريعة في استبدال النقد بالهدي) و (القرآن والمرأة) رسالة، (والقرآن والقتال) و (هذا هو الإسلام) و (عنصر الخلود في الإسلام) و (الإسلام والتكافل الاجتماعي)، و (فقه السنة) الأول منه، و (أحاديث الصباح في المذياع) و (فصول شرعية اجتماعية)، و (حكم الشريعة الإسلامية في تنظيم النسل) محاضرة، و (الدعوة المحمدية) رسالة، و (فقه القرآن والسنة) الجزء الأول، و (الفتاوى) و (توجيهات الإسلام) و (الإسلام عقيدة وشريعة) و (الإسلام والوجود الدولي).. الأعلام ٧/ ١٧٢ - ١٧٣ .

عبد المجيد اللبان[1]، والشيخ محمد يوسف موسى، والشيخ محمد المدني[2]، والشيخ محمد عبد الله دراز[3] والشيخ محمد أبو زهرة[4] وغيرهم، ونال العالية عام ١٩٤١م، وحصل من كلية اللغة العربية على درجة التخصص في التدريس، وهي تعادل درجة الماجستير سنة ١٩٤٣م، وعن هذه المرحلة وظروفها الصعبة يقول: "لا أدري كيف حصلتُ على شهادتي العالية؟، لأنه لولا عون الله ما تم ذلك، لم أكن متقدماً في ترتيب الناجحين، فهل أحزنني أنني لم أكن من العشرة الأوائل؟، كلا!، إنني ما تأخرت عن بلادة أو تقصير، كانت الأحوال التي تكتنفني رديئة، لا أذكر أنني ملكتُ كتاباً طوال السنوات الأربع، وأني لي ذلك؟!. وعندما عرض علينا شرح النووي لصحيح مسلم بنصف جنيه مقسطاً على شعرة شهور هززتُ رأسي بأسىً، وقلُت: ما معي يكفي

---

(١) عبد المجيد اللبان: (١٢٨٧م – ١٣٦١ هـ = ١٨٧٠م – ١٩٤٢م)فقيه مصري. تعلم في الأزهر. وتولى مشيخة كلية أصول الدين فيه منذ إنشائها (١٩٣٢م) إلى وفاته. له كتب مهمة، طبع منها كتاب " السيرة النبويّة " و " دروس الأخلاق الدينية "، انظر: الأعلام، ٤/ ١٥٠ .

(٢) هو العلامة محمد محمد المدني،(١٩٠٧–١٩٦٨)،ولد بمركز المحمودية ،بمحافظة البحيرة ،درس بالأزهر وحصل علي العالمية (الدكتوراة)، وسنه عشرون عاما ،في علوم اللغة والأدب ،في سابقة لم تحدث ، تولي التدريس في كلية الشريعة وتولي عمادتها، له جهاد علمي ودعوي عظيم ،ومؤلفات قيمة ، انظر تفصيلا عن سيرته في موقعه علي الانترنت.

(٣) محمد بن عبد الله دراز(٠٠٠ – ١٣٧٧ هـ = ٠٠٠ – ١٩٥٨م): فقيه متأدب مصري أزهري. كان عضواً في هيئة كبار العلماء بالأزهر، له كتب، منها (الدين) دراسة تمهيدية لتاريخ الإسلام، انظر: الأعلام: ٦/ ٢٤٦.

(٤) محمد بن أحمد أبو زهرة(١٣١٦ – ١٣٩٤ هـ = ١٨٩٨ – ١٩٧٤م): أكبر علماء الشريعة الإسلامية في عصره. مولده بمدينة المحلة الكبرى، وتربى بالجامع الأحمدي ،وتعلم بمدرسة القضاء الشرعي (١٩١٦ – ١٩٢٥)، وتولى تدريس العلوم الشرعية والعربية ثلاث سنوات، وعلم في المدارس الثانوية سنتين ونصفا. وبدأ اتجاهه إلى البحث العلمي في كلية أصول الدين (١٩٣٣) وعين أستاذا محاضرا للدراسات العليا في الجامعة (١٩٣٥) وعضوا للمجلس الأعلى للبحوث العلمية. وكان وكيلا لكلية الحقوق بجامعة القاهرة، ووكيلا لمعهد الدراسات الإسلامية وأصدر من تأليفه أكثر من ٤٠ كتابا، منها: (الخطابة) و (تاريخ الجدل في الإسلام) و (أصول الفقه) و (الملكية ونظرية العقد في الشريعة الإسلامية) === === و(مذكرات في الوقف) و (تواريخ مفصلة ودراسة فقهية أصولية للأئمة الأربعة) فأخرج لكل إمام كتابا ضخما: أبو حنيفة، مالك، الشافعيّ، ابن حنبل. ومن كتبه المطبوعة أيضا (الأحوال الشخصية) و (أحكام التركات والمواريث) و(محاضرات في مقارنات الأديان) و (محاضرات في المجتمع الإسلامي) وكانت وفاته بالقاهرة، انظر: الأعلام: ٦/ ٢٥–٢٦.

للأطعمة والملابس..، واختفيت دون أن يشعر بي أحد". ويعتبر والده بطلاً، لأنه «وهب ابنه لله، وباع ما يملك ليصلني بدراسة تخدم الإسلام».

- عُين عام ١٩٤٣م إماماً وخطيباً، وتدرج في مناصب الدعوة والوعظ والإرشاد، حتى أصبح وكيلاً لوزارة الأوقاف، لشؤون الدعوة الإسلامية في ٨/ ٣/ ١٩٨١م، ثم قدم استقالته من الوزارة، عندما اختلف مع سياسة الدولة في قضايا كثيرة، من أهمها: المعاهدة الجائرة مع الصهاينة! [١].

وقد ارتبط بجماعة الإخوان المسلمين وهو طالب بكلية أصول الدين، وعمل - فترة - سكرتيراً لمجلة "الإخوان المسلمون"، وكان يكتب كثيراً، تارة بتوقيعه، وتارات بتوقيعات أخرى. وكان يخوض من خلال هذه الكتابات معاركه ضد الظلم الاجتماعي والامتيازات الطبقية، والفوارق الاقتصادية الفاحشة، وبدأ في إصدار الكتب، في مقتبل شبابه، فظهر كتابه "الإسلام والأوضاع الاقتصادية"، ثم "الإسلام والمناهج الاشتراكية"، و"الإسلام المفترى عليه، بين الشيوعيين والرأسماليين".

اعتقل عام ٤٨، ١٩٤٩م في معتقل "الطور" بصحراء سيناء، مع ألوف من أفراد جماعة الإخوان، بعد نكبة ١٩٤٨م، وقضى قرابة العام، وكان له دوره البارز في توعية المعتقلين وتوجيههم وقيادتهم، حيث كان يؤمهم في الصلوات، ويخطبهم في الجمعة، ويدرسهم في الحلقات، مع الشيخ سيد سابق [٢]، ========

(١) د/ محمد عمارة "الشيخ محمد الغزالي، الموقع الفكري.. والمعارك الفكرية"، من ص ٢٩ ـ ٣٣، ط١، دار السلام، القاهرة، ١٤٣٠هـ، وص٤٢-٤٣،و من ص ٨٣، و ص ١٨٣ ـ ١٨٧، لابنه علاء الغزالي، « السيرة الشخصية للشيخ محمد الغزالي » في كتاب « العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي » طبع المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، مؤسسة آل البيت، والمعهد العالمي للفكر الإسلامي ط١ ١٩٩٦م. وانظر: "الشيخ الغزالي ومعركة المصحف في العالم الإسلامي"، لمحمد شلبي، ط/ ١، دار الصحوة بالقاهرة، ١٩٨٧م، ص ١٢٥، وتفاصيل نشأته وأحداثها، موجودة في "قصة حياة، مقتطفات من مذكرات الشيخ"، ضمن مجلة "إسلامية المعرفة"، عدد: ٧، رمضان ١٤١٧هـ/ يناير ١٩٩٧م، ص ١٥٥ و١٦٧.

(٢) الشيخ سيد سابق: أحد علما الأزهر الكبار، وأحد كبراء الفقه الإسلامي العظام، تخرج من كلية الشريعة، وكان أحد قيادات جماعة الإخوان المسلمين، اشتهر بكتبه المهمة، خاصة مجلدات "فقه السنة"، الذي استفاد منه المسلمون في العالم كله، وطبع مئات الطبعات، بلغات عديدة، درَّس في السنين الأخيرة من عمره في جامعة أم القرى، وكان من دعائمها مع نخبة =

والأستاذ البهي الخولي [1]، وغيرهم [2].

وتابع الإمام التأليف، فأصدر "الإسلام والاستبداد السياسي"، و" من هنا نعلم"، رداً على كتاب "من هند نبدأ" لخالد محمد خالد [3]، ورد على كتاب متحامل على الإسلام بتكليف من مرشد الإخوان - حينذاك - الأستاذ حسن الهضيبي [4]، وكان عنوان كتاب الغزالي "التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام".

وقد تعرض الإمام لمضايقات كثيرة ومتاعب عديدة من أجهزة الحكم الناصري، وإعلامه، خاصة في الستينيات، ونشرت رسوم ساخرة مستهزئة بالشيخ محمد الغزالي وبالأزهر وبالإسلام، تحت عنوان "تأملات كاريكاتورية في المسألة الغزالية"، ومنع من الخطابة، وصودرت بعض كتبه، وتم منعه من الظهور في الإذاعات كلها، مسموعة ومرئية، ثم اعتقل فترة في حملة عبد الناصر على الإخوان والإسلام عام ١٩٦٥م، وبعد

عظيمة من علماء الأزهر، حصل على جائزة الملك فيصل العالمية عام ١٤١٣هـ، انظر: موقع "إسلام أوين لاين"، و "المعجم الجامع في تراجم العلماء وطلبة العلم المعاصرين"، إصدار ملتقى أهل الحديث، ج١، ص ٩٨، ٩٩ .

(١) البهي الخولي: هو الشيخ البهي نجا إبراهيم الخولي، (١٩٠١ ـ ١٩٧٧م)، المفكر والكاتب والداعية، ، ولد بمحافظة الغربية، بقرية القرشية، مركز السنة، تخرج من كلية دار العلوم، وتلقى العلم على يد جماعة من كبار العلماء. عمل مديراً عاماً للمساجد بوزارة الأوقاف، درَّس في كلية أصول الدين وكلية دار العلوم وغيرهما، له مؤلفات جيدة من أهمها: تذكرة الدعاة، وقد طبع عدة طبعات، والثروة في ظل الإسلام، وكتب في الاقتصاد الإسلامي .. إلخ وكتب في السيرة والتراجم والتفسير وغير ذلك، له تلاميذ كثيرون، ملأوا الدنيا علماً وهداية ـ رحمه الله ـ . انظر ترجمته في موقع "ويكيبيديا"، الموسوعة الحرة، بالإنترنت .

(٢) "الشيخ الغزالي كما عرفته، رحلة نصف قرن"، مرجع سابق ، ص ١١ ـ ١٤، و"قصة حياة"، ص ١٦٣-١٦٧، ١٦٨، و"الموقع الفكري.."، ص ٢١٤.

(٣) خالد محمد خالد: كاتب وأديب مصري، ولد بمحافظة الشرقية وتخرج من كلية الشريعة بالأزهر، له مؤلفات عظيمة، انتفع بها الناس، منها: "رجال حول الرسول"، و"كما تحدث القرآن"، و"خلفاء الرسول"، وله مؤلف "من هنا نبدأ"، دعا فيه لأفكار خاطئة، رد عليها الشيخ محمد الغزالي، بكتاب "من هنا نعلم"، وقد تراجع عن أفكاره السيئة ـ رحمه الله ـ. ولد عام ١٩٢٠ ـ ١٩٩٦م، انظر: "ذيل الأعلام، قاموس تراجم .."، أحمد العلاونة، ط. دار المنارة للنشر، ط/ ١، ١٩٩٨م، ص ٧٨ .

(٤) حسن الهضيبي: (١٨٩١ ـ ١٩٧٣م)، المرشد العام للإخوان المسلمين بمصر، ولي القضاء في مدينة أسيوط، ثم كان مستشاراً قضائياً، سجن ظلماً عام ٥٤ وعام ١٩٦٤م، سنوات طوال، ـ رحمه الله ـ. انظر: "الأعلام"، للزركلي، ج ٢، ص ٢٢٥ .

وفاة عبد الناصر مكن الله للإمام، وتعاون مع الإمام الأكبر د عبد الحليم [١] محمود شيخ الأزهر في إنقاذ الأزهر والدعوة ونشرها، خاصة ما قام به من إحياء دور مسجد عمرو بن العاص والخطابة فيه [٢].

وقد كان للإمام جهوده الدعوية والتعليمية في السعودية، عندما عمل بجامعة أم القرى، وفي قطر، وفي الكويت، والجزائر، لما عمل بجامعاتها، بجانب دوره الكبير في المؤتمرات الشبابية والطلابية في أوربا وأمريكا [٣].

وقد كرمته كثير من الدول العربية والإسلامية، فحصل على جائزة الدولة التقديرية من مصر، وعلى جائزة الملك فيصل [٤] العالمية في مجال خدمة الإسلام، وعلى أرفع وسام من موريتانيا، وأرفع وسام من الجزائر، بالإضافة لكثير من الجوائز، كما كرمته قطر والسودان وباكستان، وماليزيا التي منحته في عام ١٩٩٦م وسامها الأول.

كل هذه الأوسمة والتكريم والجوائز ما زادت إمامنا إلا تواضعاً وذلاً لله وحده، فيذكر أنه عندما تسلم جائزة الملك فيصل العالمية، ردد قوله - تعالى -: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ١٧﴾ [٥]

ولم يبخل الإمام بجهد أو مال أو علم أو تعب في سبيل نصرة دين الله في كل مكان، فسافر إلى البوسنة والهرسك، مشاركاً لأهلها في محنتهم وأحزانهم، بسبب الحرب الغاشمة التي قامت ضدهم، من الصرب والكروات وغيرهم من الصليبيين الأوربيين،

---

(١) د/ عبد الحليم محمود: (١٩١٠ ـ ١٩٧٨م)، شيخ الأزهر، وأحد علماء مصر، الكبار، ولد بإحدى قرى محافظة الشرقية، نال الدكتوراه في التصوف الإسلامي من جامعة السوربون بفرنسا، تولى عمادة كلية أصول الدين، ثم وزارة الأوقاف، ثم مشيخة الأزهر، عام ١٩٧٣م، له مؤلفات عظيمة في موضوعات مهمة، وحقق عدة مخطوطات مهمة، مثل: "الرسالة القشيرية" لعبد الكريم بن هوازن القشيري، وغيرها. انظر: "ذيل الأعلام ..."، لأحمد العلاونة، ص ١١٥، ١١٦ .

(٢) قصة حياة، ص١٨٥-٢١٠.

(٣) المراجع السابقة، د/ علاء الغزالي، "السيرة الشخصية..."، ص ١٨٩ ـ ١٩٠.

(٤) هو فيصل بن عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل، آل سعود، (١٩٠٦ ـ ١٩٧٥م، أصبح ملكاً على السعودية عام ١٩٦٤م، له أعمال عظيمة في خدمة الإسلام والمسلمين، انظر "الأعلام"، للزركلي، ج ٥، ص ١٦٦، ١٦٧ .

(٥) سورة القصص: آية رقم ١٧ .

وشارك في المؤتمرات التي عقدت لمناصرة البوسنة والشيشان المقاومة للروس الملاحدة، وحاضر وكتب وخطب، محرضاً المقاتلين، ومثبتاً لهم، وباعثاً لحماسهم، رغم سنّه الكبيرة، وصحته المجهدة.

لقد كان بيت الإمام قبلة، يتوافد عليه الناس، ليسألوا، ويجدوا ضالتهم المنشودة، فقد تميز الإمام بالسماحة في الرؤى الفقهية، يرى الأيسر على السائل، ويفتي به، ويحزن إن وجد فتوى ضيقتْ على الناس متسعاً، أو صعبت مواقف الناس، ويفك كروب المكروبين، وقد يفك الدَيْن عن المدينين، يسمع الشكوى، ويتابع أحوال صاحبها، ويعتمد فعل الخيرات في سر، لا يعلمه صاحبه [1].

كان الشيخ محمد الغزالي رقيق العاطفة، يبكي حباً واشتياقاً لرسول الله -ﷺ- ،لكنه كان أسداً هصوراً، عندما يغضب للإسلام ولحرمات أمة الإسلام. حاداً في تقريعه للغافلين عن مخاطر الحرب الصليبية - الصهيونية، القائمة ضد الإسلام.

- لقد كان الشيخ الغزالي نموذجاً فريداً من العلماء المجددين، حاملاً لهموم الأمة، واعياً بأبعاد الحرب المعلنة ضد الإسلام وأمته وحضارته، مدرِكاً لخطر الأمراض الداخلية التي تفترس الأمة، والتي يحرسها الغرب الاستعماري، لتظل أمتنا في حالة "الرجل المريض"، الذي يفترس الصليبيون والصهاينة تركته، ويقطعون أوصاله، ومبصراً لمخاطر أمراض القلوب، التي تفوق أمراض الواقع المادي!.

عناية الإمام بإصلاح الفكر والقلب معاً:

- قدم الشيخ الغزالي العديد من الكتب والدراسات، التي سعت إلى تجديد "الذات الإسلامية"، بالغذاء الإسلامي الصالح والصحيح؛ تجديد العقل وتصفية وتصحيح رؤيته، وتجديد القلب، وترقيق مشاعره، وإقامة علاقة التكامل، التي امتاز بها الإسلام، بينهما.

لقد كان هذا الميدان أغنى ميادين المشروع الفكري للشيخ الغزالي بالكتب

(١) "العطاء الفكري."، دراسة لابن الإمام د/ علاء الغزالي، بعنوان "السيرة الشخصية للشيخ محمد الغزالي"، ص ١٨٣ ـ ٢٠٥.

والدراسات، فهو ميدان القوة الإسلامية الضاربة، التي يتوقف على صلاحها إحراز النصر الإسلامي على كل الجبهات، وفي مواجهة كل التحديات! [١].

- إن الإمام صاحب شخصية فذة متفردة: فقيهاً بصيراً، نقاداً مدركاً لمقاصد الشريعة، عالماً بأحوال قومه وما يحيط بهم وما ينبغي لهم، خطيباً مجاهداً، بل كان المدافع الصلب عن حياض الإسلام بالحجة المقنِعة، والمنهجية العلمية الممزوجة بالعاطفة الصادقة والحب العميق لهذا الدين. وكان كالطود الشامخ، والكتيبة الثابتة، ثبت الله به الحق وأهله، ورد كيد الكائدين [٢].

وقد استطاع الإمام بعقليته الهاضمة المستوعبة، وبيانه الرائع الأخاذ، وجرأته وشجاعته وصدقه أن يعبر عن قيم الإسلام ومقاصده الكلية، ومشروعه الحضاري، بحيث أصبح إماماً عظيماً يؤخذ عنه، ويقتدَى به! [٣].

واستوعب مناهج الأصوليين ومناهج الفقهاء، ومناهج المتصوفة، ومناهج اللغويين، ودقق ومحص، وغربل وقارب، واستخلص، فجاءت رؤيته المنهجية تعمق الركائز الإيمانية، وتجذر أصول العقيدة، وتعيد المسلم إلى المنابع الصافية من كتاب الله، وسنة رسوله -ﷺ- [٤].

وفي نوفمبر ١٩٩٥م، شارك في احتفالات هيئة الأمم المتحدة بعيدها الخمسين، بأمريكا، وألقى كلمة الأمة الإسلامية في هذه المناسبة [٥].

لقد شاء الله أن يلقى الإمام ربه، أثناء إعداده لرد علمي على إساءات لدين الله في مهرجان "الجنادرية"، بالسعودية، صدرت عن أحد المشاركين في المهرجان، لقي الإمام

---

(١) المرجع السابق، ص٢٠٥.

(٢) انظر: "العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي"، ص ١٨، ١٩، ٢٠، و ٣٠.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٨، "مقال د/ أحمد العسال، الجوانب النفسية والخلقية للشيخ الغزالي".

(٤) "العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي"، ص ٤٣.

(٥) د/ عبد الحليم عويس، "الشيخ الغزالي، مراحل عظيمة في حياة مجاهد عظيم"، ضمن كتاب "الشيخ محمد الغزالي، صور من حياة مجاهد عظيم، ودراسة لجوانب من فكره"، ط/ ١، دار الصحوة، القاهرة، ١٩٩٣م، ص ١٢، وعلاء محمد الغزالي، "السيرة الشخصية للشيخ محمد الغزالي"، ص ١٨٥، ١٩٥، ٢٠٥ في "العطاء الفكري..."، و"الموقع الفكري..."، ص ، و"العطاء الفكري..."، ص ٢٠٤، ٢٠٥.

ربه وهو يجاهد ويدافع عن دين الله، وعن سنة رسوله، لذا كان مدفنه في البقيع بالمدينة المنورة، بجوار ابن النبي محمد -ﷺ- إبراهيم، وكانت الوفاة في مارس ١٩٩٦م، شوال ١٤١٦هـ. فنعمت الحياة، ونعم الكفاح، ونعم الجهاد، ونعمت الدعوة، ونعم المهات، رضي الله عنك يا إمام، ورفع ذكرك في العالمين، ولقد ترك للأمة والإنسانية تراثاً ضخماً وإنتاجاً هائلاً، تمثل في ملايين التلاميذ والمحبين، والقارئين والمستمعين والمشاهدين في أرض الله كلها.

تراث يزيد عن الستين كتاباً، في مختلف مجالات المعرفة الإسلامية، بالإضافة إلى مئات المقالات وآلاف الخطب والدروس والمحاضرات.

إن الغزالي لم يكن مجرد عقل مجتهد ومجدد، ولا مجرد داعية حامل لهموم الأمة، ومرابط بفروسية على ثغور الإسلام، على امتداد خمسين عاماً، ترك لنا فيها قرابة الستين كتاباً، وذلك غير المقالات والخطب والمحاضرات والحوارات، التي ستبقى ديواناً للجهاد الفكري، في سبيل النهضة والاستنارة والتقدم والتجديد، و"جامعة للفكر الإسلامي"، تتربى فيها الأجيال.

لم يكن الشيخ الغزالي كل هذا فقط، وإنما كان - مع ذلك - قلباً نورانياً، عاش في سناه عارفوه، الذين تتلمذوا على يديه واقتربوا من فكره وربانيته!.

كان واحداً من أعلام العلماء الذين أنقذوا الثقافة الإسلامية من ذلك الفصام النِكد المنكَر بين العقل والقلب.

ذلك الفصام الذي حوَّل العبادات إلى أشكال جفَّت فيها الروحانية، وحوَّل القلوب إلى مستودَع بدع وخرافات!.

لذا سعت مدرسة الإحياء والتجديد - التي تعلَّم وتربى فيها الغزالي - وصار من أعلام قادتها - لإعادة الوفاق والتزامل والتكامل بين "العقول المؤمنة"، و" القلوب الواعية" [1].

فمن "خلق المسلم" إلى "عقيدة المسلم"، و"التعصب والتسامح"، و"جدد

(١) د/ محمد عمارة، "الشيخ محمد الغزالي ـ رحمه الله ـ الموقع الفكري، والمعارك الفكرية"، مرجع سابق ص ٥ ـ ٦.

حياتك"، و "في موكب الدعوة"، و"فقه السيرة"، و"ليس من الإسلام"، و"هذا ديننا"، و"كيف نفهم الإسلام"، و"كيف نتعامل مع القرآن"، و"المحاور الخمسة للقرآن الكريم"، و "مع الله، دراسات في الدعوة والدعاة"، و"معركة المصحف"، و"كفاح دين"، و"الإسلام والطاقات المعطلة"، و"الجانب العاطفي من الإسلام"، و"سر تأخر العرب والمسلمين".. وغيرها، وغيرها..، من الكتب والدراسات التي استهدفت تزكية الذات والنفس الإسلامية بالإسلام.

لقد كان الإمام الغزالي واعياً بضرورة إصلاح الداخل الإسلامي، والذات الإسلامية، لزيادة المناعة والمنعة الإسلامية، ضد الزحف الغربي على الذات الإسلامية[1].

- لقد تآلفت في فكر الشيخ الغزالي ونظراته وإبداعاته، ومنهاجه في الدعوة إلى الله، تآلفت ملكات العقل والنقل، والتجربة والوجدان.

فجمع بين عقل الفيلسوف، وقلب الصوفي، والوعي بمقاصد النصوص، وملكة المربي، موظفاً جميعا هذه الملكات في العمل الصالح، الذي هو رسالة المؤمن في هذه الحياة [2].

وقد ذكر أن والده كان صوفياً، وعاشقاً لعلم التربية والسلوك، يحترم رجاله، ويختار مسالكهم، من أتباع الشيخ أبي خليل(*)، وما عرفه إلا كادحاً، قواماً، جلداً، يتقي الله في رزقه، ويقرأ القرآن في دكانه، ويعايش الناس على الأخوة السمحة، ولا يعرف شيئاً من الخزعبلات والأباطيل! [3] وكان يهمه أن ينجب من يخدم الإسلام! [4].

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٣، ٢٤، و"العطاء الفكري للشيخ"، ص ٢٧ ـ ٣٠، للدكتور/ أحمد العسال ـ رحمه الله ـ.

(٢) د/ محمد عمارة، "أضواء على محاورات الشيخ الغزالي"، ط/ ١، دار السلام للطباعة، عام ٢٠١١م، ص ٢٥، و د/ أحمد العسال، "الجوانب النسفية والخلقية للشيخ محمد الغزالي"، ص ٢٧ ـ ٣٠.

(٣) "الشيخ الغزالي « مائة سؤال عن الإسلام » ط٢، نهضة مصر، ٢٠٠٤م، ص٤٢٠.

(*) هو الشيخ محمد أبو خليل، مؤسس الطريقة الخليلية بمدينة الزقازيق ،بمحافظة الشرقية بمصر ،ينتهي نسبه الي سيدنا الحسين _رضي الله عنه_ توفي في ١١ شوال عام ١٣٨٨ه،الموافق ٢٩/ ٦/ ١٩٢٠. انظر موقع الطريقة الخليلية بالأنترنت.

(٤) "حوارات الشيخ الغزالي، السيرة والمسيرة"، ط/ ١، ٢٠١٢م، دار السلام، القاهرة، ط١، عام ٢٠١٢م والمعهد =

وكان والده محباً لآل بيت النبي -ﷺ-، عاشقاً لأبي حامد الغزالي، المتوفى سنة ٥٠٥هـ [١].

وممن لم ينسهم الشيخ في مراحل تعليمه، مدرس نحو في المرحلة الابتدائية، سأل الشيخ، قائلاً: أعرب يا ولد؟: «رأيت الله أكبر كل شيء»، فأجاب على عجل: رأيت، فعل وفاعل، والله: منصوب على التعظيم!.

وحدثت ضجة من الطلبة بعد الإجابة، نظر الشيخ إلى أستاذه مذعوراً، فرأى عيني أستاذه تذرفان!.

ويعلق الشيخ على ذلك بقوله: كان الرجل من القلوب الخاشعة، وقد هزه أني التزمت الاحترام مع لفظ الجلالة- كما علموني، فلم أقل إنه مفعول أول، ودمعت عيناه، تأدباً مع الله!».

ويختم تعليقه: كان ذلك من ستين سنة أو يزيد، رحمه الله وأجزل مثوبته [٢].

ويقول الإمام عن نفسه: "أنا في أعماق قلبي صوفي، وأرى أن العاطفة الحارة جزء من الحقيقة، وأرى أنه لابد من أن يكون لكل إنسان قدر من التصوف والأخلاق،...، وأرى أن التصوف - كما سميته في بعض كتبي - هو الجانب العاطفي من الإسلام، ويستحيل أن يكتمل إيمان وأن تنضج معانيه في النفوس مع خراب القلب أو جفافه، لابد من وجدان فيه انفعالات، إن الإسلام قلب وعقل؛ عقل لا خرافة فيه، وقلب لا رهبنة فيه، وليس فيه التكاسل عن واجب ينبغي أن ينشَط إليه.

إن بشاشة الإيمان لا يمكن أن تجيء من الدليل العقلي وحده، بل تجيء من الانفراج النفسي له، وانفتاحها وتجاوبها معه.

إن الأخلاق الربانية تقوم كلها على عمل القلب، أي على الحب في الله، على

العالمي للفكر الإسلامي، ص ٧٦.

(١) د/ علاء محمد الغزالي، "السيرة الشخصية للشيخ محمد الغزالي"، في "العطاء الفكري..."، ص ١٨٣ ـ ١٨٧ و « قصة حياة » ص١٥٦.

(٢) « قصة حياة » مجلة إسلامية المعرفة ،عدد يناير ١٩٩٧م، ص١٥٦.

التوكل، على التفويض لله، والخشية من الله، والرجاء في الله، والورع لله.

هذه المعاني كلها – من صبر وشكر وخوف ورجاء – ليست صفات العقل، بل هي صفات القلب، وهي انفعالات...، هناك تصوف، لكن من قال: إن التصوف لابد أن يكون خرافياً؟، الفقه الغبي مثل التصوف الغبي، كلاهما خطر على الإسلام، وضرر في مجال الدعوة إليه" [1].

وذكر الإمام الغزالي أن أستاذه حسن البنا كان موسوعة فقهية وعلمية، وأساسه أنه مربٍّ، وهو من ناحية التربية امتداد لأبي الحسن الشاذلي [2]، ورجال التصوف الكبار![3].

واعترافاً بفضل حسن البنا عليه قال: "إن حسن البنا [4] أستاذي، وربما لا أكون شيئاً قط، لو لم أتصل بحسن البنا، الذي اتصل بمحمد عبده [5]، ورشيد رضا [6]

---

(١) "أضواء على محاورات الشيخ الغزالي"، ص ٢٧ ـ ٢٩ بتصرف يسير.

(٢) أبو الحسن الشاذلي: هو علي بن عبد الله بن عبد الجبار، بن يوسف بن هرمز، الشاذلي، المغربي، رأس الطائفة الشاذلية، ولد في بلاد غمارة، بريف المغرب، ورحل إلى بلاد المشرق، فحج ثم سكن الإسكندرية، وتوفى بصحراء عيذاب في واد على طريق الصعيد، في طريقه إلى الحج، وكان ضريراً ـ رحمه الله ـ، ولد عام ٥٩١هـ، وتوفى عام ٦٥٦هـ. انظر "الأعلام"، للزركلي، ج ٤، ص ٣٠٥، و"معجم المؤلفين، ج ٧، ص ١٣٧، و"طبقات الأولياء"، لابن الملقن، ج١، ص ٧٥.

(٣) "حوارات الشيخ الغزالي، السيرة والمسيرة"، ص ١٤٠.

(٤) حسن البنا: (١٩٠٦ ـ ١٩٤٩م". هو حسن بن أحمد بن عبد الرحمن البنا، مؤسس جمعية (الإخوان المسلمين)، وصاحب دعوتهم، ولد في المحمودية قرب الإسكندرية، وتخرج بمدرسة دار العلوم بالقاهرة وعمل مدرساً، له كتب ورسائل يتتلمذ ويتربى عليها أتباعه ـ رحمه الله ـ. انظر "الأعلام"، للزركلي، ج٢، ص ١٨٣، ١٨٤ .

(٥) هو الإمام محمد عبده بن حسن خير الله، من آل التركماني، مفتي الديار المصرية، ومن كبار رجال الإصلاح والتجديد في الإسلام، تعلم بالجامع الأحمدي بطنطا ثم الأزهر، وقد تقلب في شتى الشئون والوظائف والبلدان. له مؤلفات عظيمة أثرت في العالم الإسلامي، وتلامذته أئمة كبار لهم دورهم في إصلاح ونهضة أمتنا. ولد عام ١٢٦٦هـ = ١٨٤٩م، وتوفى عام ١٩٠٥م.انظر "الأعلام"، للزركلي، ج ٦، ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣.

(٦) رشيد رضا: (١٨٦٥ ـ ١٩٣٥م. هو محمد رشيد بن علي رضا بن محمد، شمس الدين بن محمد ...، القلموني، البغدادي الأصل، الحسيني النسب، صاحب مجلة "المنار"، وأحد رجال الإسلام الإسلامي، من كبار الكتاب، العلماء بالحديث والتاريخ والتفسير والأدب..، ولد ونشأ في القلمون (من أعمال طرابلس الشام)، رحل إلى مصر فلازم الإمام محمد عبده، وتتلمذ له، له مؤلفات مهمة نافعة، ودور كبير في مقاومة الاحتلال والتنصير والتغريب ـ رحمه الله ـ. انظر "الأعلام"، للزركلي، ج٦، ص ١٢٦ .

..."[1].

ووصف حسن البنا بأنه: "كبير الدعاة، ومجدد الإسلام في القرن الماضي" [2].

ورأى أن البنا "قد أوتي حظاً ضخماً من مواريث الأخلاق التي اتصف بها نبينا – ﷺ –، فأخلاقه كانت عالية، وكان تجرده لله، وكأنه وعى جيداً قول الله – تعالى – لنبيه – ﷺ –: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ۝١٦٣﴾ [3] [4].

وقال: كان حسن البنا امتداداً واعياً عاقلاً، ذكيا لمدرسة محمد عبده ورشيد رضا، محمد عبده كان صوفياً، لكن كان جباراً متألقاً، ولذلك، فإننا نرى في مدرسة الرجل مدرسة كاملة، زادها اكتمالاً أن رشيد رضا كان من علماء الأصول، وعلماء الرواية، فما كان ينقص عند محمد عبده وجد عند رشيد رضا، فالدراسة اكتملت بالاثنين معاً" [5].

وذكر الإمام تأثيره بالشيخ أمين خطاب [6]، رئيس الجمعية الشرعية، الذي كان بكاء، خاشع القلب، حزيناً على أحوال المسلمين، مربياً جيد التربية كما يذكر الشيخ الغزالي [7].

[7].

وقد تأثر الإمام بقوة بحجة الإسلام أبي حامد الغزالي، ورآه فقيهاً وصوفياً، ومربياً صاحب أخلاق، وإلى جانب هذا كان فيلسوفاً، دراسته للفلسفة تعلو على سقراط، وأرسطو، لأنه يطل عليهم من أعلى، ويعرف صوابهم فيزيده، ويعرف خطأهم، فينقده،

---

(١) "حوارات الشيخ الغزالي...."،مرجع سابق ص ٩٦، ٩٧.

(٢) المرجع السابق، ص ١٥٨.

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٦٢-١٦٣.

(٣) "حوارات الشيخ الغزالي...."، ص ١٦١.

(٥) المرجع السابق، ص٢٢.

(٦) الشيخ أمين خطاب: هو أمين محمود محمد خطاب السبكي، من كبار علماء الأزهر الشريف، ودرس في كلية الشريعة، وتولى إمامة الجمعية الشرعية بعد والده الإمام محمود خطاب، فتابع منهجه، وكان له نشاط علمي بارز، وله مؤلفات عديدة، أهمها الفتاوى الأمينية. ولد عام ١٨٨٤م، وتوفى عام ١٩٦٨م ـ رحمه الله ـ. انظر موقع "الجمعية الشرعية" على موقعها بالإنترنت .

(٧) المرجع السابق، ص٣٩.

ويدرس الأديان، فهو عدة مدارس تكاملت، وقال في ذلك: "لما كبرت أحببتُه، لأني وجدت في حياته من مشاعر الوله والحب لله ما جعلني أحس أنني أمام قمة في الإنسانية الذاكية الراقية"،.. وقال عنه: "الرجل لديه من عواطف الحب والعشق الإلهي ما لو وُزع على البشر ـ لجعلهم من العارفين بالله، وكان يتكلم بحرقة عن العظمة الإلهية، وطالب بالانتفاع بتراث رجالنا الكبار جميعاً"[1].

كان الإمام محمد الغزالي مثلاً للنزاهة والتخلق بخلق الإسلام، وكان متوهجاً بإيمانه، عاش حياة غنية مباركة، مضيئة بالمواقف الشريفة[2]، ومع تعدد الأوصاف التي يمكن أن يوصف بها الشيخ بحق: كاتباً، وأديباً وباحثاً، وعالماً ومجتهداً، ومفكراً وداعياً، فإن الدعوة هي الصفة التي كان – رحمه الله – يفضل أن ينتسب إليها[3].

لقد عاش الإمام، أحد كبار حراس هذا الدين، وقف لأعدائه بالمرصاد، مدافعاً زائداً، بل مقاتلاً مهاجماً، لم ينشد الراحة، عاش عمره كله للإسلام، له نذر فكره وقلبه، ولسانه وقلمه، وجهاده واجتهاده![4].

ووصف الإمام نفسه فقال: "أنا عسكري للإسلام، وأنا شرطي للإسلام، وحارس الإسلام"[5].

وبين الإمام دوره ومهمته الكبرى، المتمثلة في معرفة الواقع الإسلامي وأحوال أمتنا، ثم توجيه الأمة إلى ما يشفي سقمها، ويداوي أمراضها، فقال: "إنني عندما أكتب أقسم مشاعري وأفكاري قسمين: قسماً يتعرف الواقع الإسلامي بدقة، ـ أعني أحوال أمتنا، ما شهر منها وما بطن ـ، وآخر يتلمس من توجيهات الإسلامي ما يشفي السقام،

(١) "حوارات الشيخ الغزالي"، ص ١٨ ـ ٢٠.

(٢) أ/ إبراهيم شبوح "كلمة المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، مؤسسة آل البيت"، في كتاب "العطاء الفكري للشيخ محمد الغزالي"، ط/ ١، ١٩٩٦م، طبع المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ص ١١، ١٢.

(٣) المرجع السابق "العطاء الفكري..."، ص ١٦، د/ فتحي ملكاوي، "كلمة المعهد العالمي للفكر الإسلامي".

(٤) "العطاء الفكري...."، ص ٢١٨.

(٥) "حوارات الشيخ الغزالي"، ص ١١٦.

ويدعم الكيان" [1].

ومن أبرز من كتب عن حياة وجهود الإمام الغزالي، ومن أعرف الناس به، الشيخ العلامة يوسف القرضاوي، وقد قال عنه: "عرفت في الشيخ الغزالي أنه رجل دعوة، قبل كل شيءٍ، الإسلام لحمته وسداه، وشغل نهاره، وحلم ليله، ومحور حياته كلها، الإسلام ماضيه، والإسلام حاضره، والإسلام مستقبله، فيه يفكر، وعنه يتحدث، وعليه يعوّل، وإليه يدعو، ومنه يستمد.

والدعوة إلى الإسلام نذر لها كل عقله، وقلبه ولسانه، وقلمه، وجهده، وجهاده، لا يستطيع الابتعاد عنها إلا كما يستطيع الحوت أن يبتعد عن الماء، يعيش بالإسلام وفيه.

له يسالم، وله يحارب، وفيه يبغض، وله يغضب، وبه يرضى، ومن أجله يصل، ومن أجله يقطع، وله يحيا، وعليه يموت.

أخلص دينه لله، فأخلصه اللهُ لدينه، لا يحب الرياء الديني، ولا الرياء الاجتماعي، ولا الرياء السياسي، ويرفض كل المظاهر الكاذبة التي تقوم عليها الحياة الدينية أو الاجتماعية" [2].

وعن صلته بالله، يقول الشيخ الغزالي: وأنا - أيها الإنسان - بالنسبة إلى ما بيني وبين ربي غير راض، - والله - عن نفسي ..

والله ما أرضى حياتي لمماتي، ولا نفسي لربي، فلا صواب لي أن أعتب على الناس.

وأما بالنسبة إلى ما ينقم الناس مني، فما ندمت على ما كتبت، ولا أستغفر الله منه، ولا أقدم اعتذاراً للناس على قول أرضيْتُ به ربي! [3].

وذكر أن من مهامه: "تخليص الثقافة الدينية من كل ما يعجزها عن أداء رسالتها، أو يضلل سعيها إلى غايتها".

وقال عن ذلك: "ما بي رغبة في تتبع عيب أو كشف مثلبة، إنما هي الرغبة العميقة

---

(١) "علل وأدوية ..."، مرجع سابق، ص ٦ .

(٢) د/ يوسف القرضاوي، "الشيخ الغزالي كما عرفته"، مرجع سابق، ص ٩ بتصرف.

(٣) "الشيخ محمد الغزالى مائة سؤال عن الإسلام..."، ص ٣١٨.

أن ينجح الدين في اكتساب الخلْق إلى منهجه، وجمعهم تحت لوائه" [1].

ووصفه د/ يوسف القرضاوي بأنه كان: "ذا قلب فياض، مليئاً بالروحانية الدافقة، يملك قلباً صوفياً، ذا نفس شاعرة يكثر قراءة قصيدة ابن الرومي [2] في قوام الليل، يقولها وعيناه تذرفان!، ومن عاشره أحس بهذه الروحانية، ومن قرأ تأثر به، وما سمعه أحد إلا تأثر به، كان يتكلم من قلبه، يعبر عما يجيش في نفسه، ليس زائفاً ولا مزيفاً ولا متكلفاً، هو كما خلقه الله، وكما فطره الله" [3].

وقد جاء للإمام رجل قال له: "أيها الشيخ، أنا أذنبتُ، وأريد أن أتوب، فنصحه الإمام وأرشده، وعلق قائلاً: ومن يدري؟، لعل هذا الشخص أقرب إلى الله مني، لعله بشعوره بما أذنب، وشعوره بتفريطه في جنب الله يكون أقرب إلى الله منا، من يدري لعل أعمالنا هذه مغشوشة أو مدخولة!" - إلى آخر قوله[4].

إن الإمام كان سريع الغضب، وإذا غضب هاج كالبحر حتى يغرق!، ومع ذلك كان سريع الفيء، رجاعاً إلى الحق، إذا تبين له، ولا يبالى أن تعلن خطأه على الناس علانية، ولا يفتري على خصمه أو يتمنى له السوء، أو يشمت به إذا أنزل بلاء! [5].

---

(١) "ركائز الإيمان..."، ص ١٨.

(٢) من أبياتها:

تتجافى جنوبهم عن وطئ المضاجعْ	كلهم بين خائف مستجير وطامعْ
تركوا لذة الكرى للعيون الهواجعْ	واستهلت عيونهم فايضات المدامعْ
ودعوْا: يا مليكنا يا جميل الصنايعْ	اعف عنا ذنوبنا للوجوه الخواشعْ
أنت إن لم يكن لنا شافع خير شافعْ	فأُجيبوا إجابة لم تقع في المسامعْ
ليس ما تصنعونه أوليائي بضائعْ	فابذلوا لي نفوسكم إنها في ودائعي

انظر: ديوان ابن الرومي، ج١، ص ٤٩، ط. المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة.

ابن الرومي، (٢٢١ ـ ٢٨٣هـ). هو علي بن العباس بن جريج، الرومي، شاعر كبير، من طبقة بشار والمتنبي والبحتري، رومي الأصل، ولد ونشأ ببغداد ومات مسموماً، كان رأساً في الهجاء والمديح، وصاحب النظم العجيب، والتوليد الغريب. انظر" سير أعلام النبلاء"، ج ١٣، ص ٤٩٥، ٤٩٦، و"وفيات الأعيان"، ج٣، ص ٣٥٨، ٣٥٩.

(٣) د/ يوسف القرضاوي، "الغزالي رجل الدعوة"، في كتاب "العطاء الفكري.."، ص ٢١٦، ٢١٧.

(٤) المرجع السابق، ص ٢١٧.

(٥) د. يوسف القرضاوي: « الشيخ الغزالي كما عرفته، رحلة نصف قرن »، مرجع سابق، ص ٤٠.

وأختم بكلمة رائعة للدكتور القرضاوي تلخص رأيه المهم في الإمام الغزالي «عرفت الشيخ الإمام منذ نصف قرن، فعرفت فيه العقل الذكي، والقلب النقي، والخلق الرضى، والعزم الأبي، والأنف الحمي، عرفت الغزالي، فما عرفت فيه إلا الصدق في الإيمان، والسداد في القول، والإخلاص في العمل، والرشد في الفكر، والطهارة في الخلق، والشجاعة في الحق، والمعاداة للباطل، والثبات في الدعوة، والمحبة للخير، والغيرة على الدين، والحرص على العدل، والبغض للظلم، والوقوف مع المستضعفين، والمنازلة للجبابرة والمتكبرين، مهما أوتوا من قوة....»[1].

(١) د/ يوسف القرضاوي: « وأخيراً هوى النجم »، مجلة المجتمع، عدد شوال ١٤١٦هـ.

رؤية الشيخ الغزالي للتصوف ودوره وواقعه ٢٣/ ٠٤/ ١٤٤٠

المبحث الأول:

أهمية الإيمان بشمول الإسلام وأهمية تكامل الشخصية المسلمة

وفيه إلى مطلبين:

المطلب الأول: أهمية الإيمان بشمول الإسلام.

المطلب الثاني: أهمية تكامل الشخصية المسلمة.

المطلب الأول: أهمية الإيمان بشمول الإسلام.

رأى الإمام أنه لابد من دولة للإسلام، تقيم أحكامه كلها، وتجاهد أعداء الله الذين يريدون اغتصاب أرضنا، ولابد من إعداد ثقافي وتشريعي للمجتمع، وإعداد حضاري، وعمراني، يستطيع به أهل الإسلام الاحتفاظ بأرضهم وصبغتهم الربانية .

إن الإسلام له رؤيته وحكمه في كل شئون الحياة: اجتماعية، وأسرية، وعسكرية، ودولية... الخ [1].

وبين الإمام أن هناك من شعب الإيمان ما لقي عناية واهتماماً شديداً من التأليف والدراسة الحصيفة، والعرض، بل لقد حُسبت هذه الشُعب الإسلام كله، لطول ما توافر العلماء على خدمتها.

من هذه الشعب: فقه العبادات، وما تضمن من طهارة وصيام وزكاة... الخ.

- وفقه المعاملات، وما تضمن من بيوع وشركات ومعاوضات... الخ.

- وسائر الأحكام المنظمة للعلاقات بين أفراد الأسرة وأركان المجتمع.

- هذا في نفس الوقت الذي نال الجانب النفسي- والخلقي - على جلالته -، من الإخلاص والمحبة لله والتوكل عليه، والأمانة والصبر والعفة.. الخ، وغيرها من معانٍ تعد من أركان الدين وأسسه وقواعده المهمة، شيئاً من الإهمال، وغُمط حقُّه، ولم ينل العناية التي لقيتها شُعب الإيمان السابقة!، وسجل الإمام ثناءه على عناية رجال التصوف الأثبات، بهذا الجانب الذي قل اكثرات الآخرين به.

وقد وضح أن هناك زحفاً مدنياً (علمانياً)، من كل فج على البيئة الإسلامية، والنفوس، والعواطف، "وإذا لم نحسن البناء الداخلي للنفوس، ورفع الإيمان على دعائمه الفكرية والعاطفية كلها، فإن الأجيال الناشئة لن تنجو من آثار هذا الزحف، وربما شعرت بنقص في كيانها الروحي، فتسعى كي تستكمله من جهات أخرى..، وهذا باب لو انفتح هبت منه شرور جائحة" [2].

---

(١) "حوارات الشيخ الغزالي..."، ص ١٥٤.

(٢) الشيخ الغزالي، "الجانب العاطفي من الإسلام..."، ط١ ،نهضة مصر، ٢٠٠٥م، ص٧٢٦ بتصرف.

لذا حذر من الاتجاه المعاكس للدين كله، والذي تتبناه الحضارة الغربية الحديثة، حيث قطعت الإنسان عن السماء، وعلقت قلبه بمآرب الدنيا فقط، وأذهلته عن مطالب الآخرة.

وحذر- أيضاً- من آثار انتشار المذاهب المادية في عصرنا الحاضر، من تغير القيم الخلقية بقوة، بحيث أصبحت الفضائل النفسية عند كثير من الناس عبئاً، لا ضرورة له، بل عبثاً ينبغي الخلاص منه، وترك النفوس تسترسل مع هواها، دون معاناة لكبته.

إلى جانب التهوين من الخلال الكريمة، ووسمها بأنها قيود على الطبيعة البشرية، تورث الضر والاكتئاب، مع المسارعة إلى إشباع الهوى واسترضاء الغرائز الدنيا حتى تروى! [1].

وبين أن هذا الاتجاه المادي أعان على تسيده أسباب عديدة، من أبرزها فشل المتدينين "في تقديم المنهج الإلهي، مشبعاً للعقل والقلب، كافلاً للدنيا والآخرة، ملبياً لحاجات الروح والجسد، والعاجلة، والآجلة". وذكر أن المسلمين أغنى الناس بمواد البناء في هذا المجال، وفي تراثنا الكفاية والغنى، إذا تناولناه بوعي وإدراك.

إن الدين "ليس أحكاماً جافة وأوامر ميتة!، إنه قلب يتحرك بالشوق والرغبة، يحمل صاحبه على المسارعة إلى طاعة الله، وهو يقول: ﴿قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾ [2]، ويحول التكاليف الصعبة إلى شيء سائغ حلو!".

والدين "ليس ابتعاداً عن المحذورات، ابتعاد خائف من مجهول، أو ابتعاد مكَره مضطرب، إنه الوجل من عصيان مليك مقتدر، سبقت نعماؤه، ووجب الاستحياء منه" [3].

وفي كلمات بليغة وصف الإمام هذا الدين مبيناً شموله وكماله، فقال: "الدين الذي تهفو إليه الإنسانية ليس جملة معارف يصدقها العقل بعد أن يستبين صحتها؛ إنه إلى

(١) "الجانب العاطفي من الإسلام"، ص ١٠٩.

(٢) سورة طه: آية رقم ٨٤.

(٣) "المرجع السابق"، ص ٤.

جانب ذلك إحساس بالوجود الإلهي، يروي ظمأ الروح إلى الرضا والتسامي.

إنه سعادة بالآخرة، تساوي السعادة التي يستشعرها البعض، عند الحصول على ثروة طائلة، أو منصب كبير.

إنه أُنْسٌ بالله في الصلاة الخاشعة والصيام العفيف!" [١].

وقال: "ليس في الإسلام انفصال بين العمل للدنيا والعمل للأخرى، فإن العمل للدنيا بطبيعته يتحول إلى عبادة، مادام مقروناً بشرف القصد، وسمو الغاية.

وليس في الإسلام تغليب للجسد على الروح، ولا للروح على الجسد، إنما فيه تنظيم دقيق، يجعل معنويات الإنسان هي التي تتولى قيادة، وتمسك بزمامه.

فلا هو براهب يقتل نداء الطبيعة، ويميت هواتف الفطرة، ولا هو مادي يتجاهل سناء الروح، وأشواقها إلى الرفعة والخلود" [٢].

إن الإسلام قد "صالح في تعاليمه بين مطالب الجسد ومطالب الروح، وبين واجبات الدنيا وواجبات الآخرة، فكأن الإنسان - بعد هذا الصلح الذي عقدة الإسلام - كيان واحد، يستقبل به عالماً، ليست فيه فواصل بين الموت والحياة" [٣].

وتساءل الإمام: "لماذا تكون لبعض المخلصين جهالات مردودة، ولبعض المتفقهين مقاصد مغشوشة؟، لماذا لا يصطلح القلب والعقل؟، أو العلم والتربية، أو الذكاء والإخلاص، فيصلح الإنسان بجوانبه كلها؟" [٤].

وقال مبيناً: "الدين مدرسة لتعليم الكمالات، وغرسها في النفوس، وأخذ الناس بها، حتى تنضج في أحوالهم وأعمالهم".

الدين "كالمستشفى، يقبل كل بشر، ويتولى علاجه بشتى الأدوية، حتى يبرأ من علله، وتتم له الصحية الروحية المنشودة".

ومن يظن أن الاكتمال النفسي يُتوصل إليه دون الإيمان بالله، وإقام للصلاة، وإيتاء

---

(١) الشيخ محمد الغزالي، "ركائز الإيمان بين العقل والقلب"،ط٣، مكتبة وهبة، ١٩٩٤م، ص ١١٣.

(٢)"الجانب العاطفي...."، ص ٩٠.

(٣) المرجع السابق ص ٩٨.

(٤) "مائة سؤال..."، ص ٣١٩.

للزكاة، أدعياء مغرورون، لا يجوز أن تكون لهم حرمة ولا حفظ مكانة لهم، "فإن الدعامة الأولى لما تصبو إليه الإنسانية من كرامة ومجد هي الاعتراف بالله، والخضوع له، والاستمداد منه، والاحتكام إليه" (١).

وذكر أن "أداء العبادات ركن ركين في بناء الكمال النفسي، ومع أن الأثر الخلقي والاجتماعي لهذه العبادات بعيد المدى، إلا أنه ثانوي في تشريعها، فالغاية الأولى من أداء العبادات هي الوفاء بحق الله، والانقياد لأمره، وإعلان التبعية المطلقة لذاته - جل شأنه-" (٢).

وقال: «إذا رأيت مصلياً لا ينتهي عنها (المنكرات)، فالسبب لا يعود إلى ريبة في الخبر الإلهي، ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ (٣)، بل السبب أن الرجل يمثل حركات صلاة، وليس مصلياً حقيقياً.

وإذا رأيت صائماً معتكر النفس، غائم الصفحة، فاعلم أنه ممثل فحسب، يتشبه بالصوام في ترك الأكل حيناً، ليغرق فيه بعد.

إن العبادات التي تكوِّن أركان الإسلام، أو التي تصور جمهرة شرائعه، رياضة جليلة الأثر، في تربية الأخلاق وتقويم الطباع" (٤).

وحذر الشيخ من الإساءة إلى الدين، عندما يـــهمل بعض المتدينين تهذيب طباعهم، وتقويم عوجهم، ثم يحرصون على الاستمساك بالشعائر، والأديان دائماً تصاب من سوء الفهم لها ومن سوء العمل بها. وصدق في قوله: "إن الصلاح الحق ينشأ عن صحة النفس، وبراءتها من أسباب السقم" (٥).

وقد فند الإمام شبهة يثيرها الكارهون للإسلام، تتمثل في الزعم بأن الإسلام يحرم الناس من طيبات كثيرة، ويمنعهم من إشباع رغبات كثيرة يحبونها ويستريحون بها.

---

(١) "الجانب العاطفي...."، ص ٩٥، ٩٥.

(٢) "المرجع السابق"، ص ٩٨ بتصرف.

(٣) سورة العنكبوت: آية رقم ٤٥.

(٤) "الجانب العاطفي...."، ص ٥٣.

(٥) "ركائز الإيمان...."، ص ١٩.

رؤية الشيخ الغزالي للتصوف ودوره وواقعه ٢٣/ ٠٤/ ١٤٤٠

وفي رده على ذلك بين أن الإسلام ما حرم طيباً، ولا حظر خيراً، وكل ما تعتدل به الطبيعة البشرية، وتستقيم فهو مباح لها، أما ما منعه الإسلام فهو الذي يزيغ بهم عن الصراط المستقيم، ويهوى بهم في الشر.

وقد خلق الله الإنسان من مادة وروح، وصلته بالسماء أعرق من صلته بالأرض، لذلك ينبغي عليه أن يرعاها، والتزام مطالبها.

وذكر أن "منازل المؤمنين ترتفع، ويتألق جبين أهل التقوى، بمقدار انتصارهم على شهواتهم، وامتلاكهم لزمام رغباتهم".

وجهاد النفوس هو الطريق الحقيقي لبلوغ القمم التي تجعل الإنسان يحتضن المثل العليا. ويبذل دونها النفس والنفيس [1]. إن الدين لا يصادر طبائع الناس، وإنما يضع لها الحدود المنظمة [2].

«وعظمة الإيمان إنما تتألق وسط دنيا يملكها المجتمع المؤمن، ويستطيع الانغماس في فتنتها، ومع ذلك فهو يحكم نفسه، ويحكمها باسم الله.

عظمة الإيمان تعتمد ابتداء على فقه في آيات الكون، يقف المرء على أسرار الإبداع الأعلى، ويشعره بما يستحقه الخالق الكبير من مجد وحمد.

عظمة الإيمان تقوم على نشاط عقلي، لا حدود له، يواكبه نشاط روحي، لا يقل عنه كفاءة، بل يربو عليه.

أما إهزال الفكر الإنساني وإضعاف ثماره، حتى يستطيع التدين المعلول أن يملك زمامه، فذاك ما نرفضه كل الرفض» [3].

وقال: «ألا ليت الإنسان ارتقى قلباً وعقلاً، وليته رنا بطرفه إلى السماء، لما ملّك قيادة الأرض.

- إنه بدلاً من ذلك مضى في طريقه، يعبد الحياة الدنيا وحدها، ويجهل أو يجحد ما

(١) "الجانب العاطفي...."، ص ١٠٩، ١١٠.

(٢) "ركائز الإيمان..."، ص ٧٦ـ٧٨.

(٣) "المرجع السابق"، ص ٢٤.

وراءها، ويتطاول على خالقه، ويظن نفسه إلهاً، يخطو على التراب!" [1].

وأضاف: «وكم فينا من ببغاوات، تجري على أفواههم كلمات جليلة، فإذا ذهبت تلتمس حقائقها في نفوس القائلين وجدتَ الفراغ، أو وجدتَ النقيض!"

- وإذا أحب الله إنساناً رطب بذكره لسانه، وأنعش به جنانه، ويسر له ما يرده إليه إن بعد، وما يقيمه على الصراط إن شرد.

- والدرب الموصِّل إلى الله قد تكفل الإسلام بوصف مراحله ومعالمه، فليس هناك شيء وراء كتاب الله وسنة رسوله [2].

(١) "ركائز الإيمان....."، ص ١١٢.

(٢) "ركائز الإيمان...."، ص ١١٨، ١٢٨.

المطلب الثاني: أهمية تكامل الشخصية المسلمة.

قد عرف الإمام وغاظه صنفان من الناس، من المتدينين:

أحدهما: صنف يحمل عاطفة حارة للإسلام، وحباً لله ورسوله، لكنه ضعيف البصر بأحكام الكتاب والسنة، يجهل منها كثيراً، ويشوب غيرتهم على الدين عكوف على الخرافات، وعجز عن استيعاب الأحكام وفقه أدلتها، مع حماسة رعناء!.

- أما الثاني فهو صنفٌ في عقله ذكاء، وفي علمه سعة، وفي قوله بلاغة، يعرف الصواب في أغلب الأحكام الشرعية، ويؤدي العبادات المطلوبة منه أداء لا بأس به، ولكنه بارد الأنفاس، بادي الجفوة، غليظ القلب، مستهين بآفات القلوب وأمراض النفوس. يتمنى العثار لغيره، لينـدد بأخطائه، ويستعلي هو بما أوتي من إدراك للحق، وبصر بمواضعه من كتاب وسنة.

ووضح الإمام أن "المسلم الكامل رجل نير الذهن والقلب معاً، حاد البصر والبصيرة جميعاً، تتعانق فكرته وعاطفته في معاملته لله، ومعاملته للناس، فلا تدري أيهما أسبق؟،: صدق أدبه أم حسن معرفته، ولا تدري أيهما أروع؟: خصوبة نفسه الجياشة، أم فطانة عقله اللماح؟".

- إن تكامل شخصية المسلم نابع من طبيعة الإسلام نفسه وسيرة الرسول -ﷺ-، "فهو دين يبني عقائده - من ناحية الصحة العقلية - على أسس فكرية، تشبه البديهيات في علوم الرياضة من حساب وجبر وهندسة.

وإلى جانب هذا فالإسلام دين عبادة، تقوم على سلامة القلب، وشحنه بالإخلاص، والمحبة والأدب، وتجريده من الهوى والأثرة والغش.

وسيرة صاحب الرسالة - صلوات الله عليه - مثَل لهذا الازدواج، بين يقظة القلب واللب، والتقائهما في سلوك واحد" [1].

وقد طالب الإمام في فصل بعنوان "روحانية الرسول"، بدراسة سيرة وهدي الرسول الكريم، محمد -ﷺ-، والاتساء به في قوة صلته بالله، وصلابة العزيمة،

(١) "الجانب العاطفي..."، ص ٨، ٩، و"مائة سؤال..."، ص ٢١، ٢٢، و"ركائز الإيمان...."، ص ١١٤، ١١٥.

وإدراكه الشامل لحقائق النفوس، وطبائع الجماعات .

إنه خير من حققه في نفسه وفي الذين حوله حياة الإنسان الكامل .

إنه-ﷺ - قد عالج من قضايا المجتمع ومشكلات الأفراد، وأحوال الأصدقاء والخصوم، ودقائق الحرب والسلم، وتقلب المشاعر واختلاف الأفهام مال يُتَح مثله لبشر آخر، ومع ذلك فإن صفاءه النفسي وتوقده العقلي لم تشبهما شائبة .

إن رقي معنوياته جزء من صميم ذاته، لا يمكن أن يتخلف عنه، أو تتفاوت قيمته، بين ارتجال وإعداد .

وقد جاءت ينابيع الحياة العاطفية والفكرية في نفس الرسول الكريم - صلوات الله وسلامه عليه-، من معرفته الساطعة بالله وذكره الدائم له، وأخذه بنصيبه الضخم من معاني الكمال في أسمائه الحسنى .

وقد تناول الشيخ الغزالي جوانب عديدة من أدعية وأذكار النبي-ﷺ-، يظهر فيها قوة العاطفة ورفقها، وروعة نفس الرسول ومحبته وإجلاله لربه [1] .

ومن هذه الأدعية والأذكار ما رواه زيد بن أرقم عن النبي - ﷺ-ـ أنه كان يقول دبر صلاته: "اللهم ربنا وربَّ كل شيء؛ أنا شهيد أنك الرب، وحدك، لا شريك لك .

اللهم ربنا ورب كل شيء، أنا شهيد أن محمداً عبدك ورسولك .

اللهم ربنا ورب كل شيء، أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة .

اللهم ربنا ورب كل شيء، اجعلني مخلصاً لك وأهلي في كل ساعة من الدنيا والآخرة .

يا ذا الجلال والإكرام، اسمع واستجب .

الله الأكبر، الأكبر، نور السماوات والأرض .

الله الأكبر، الأكبر، حسبي الله ونعم الوكيل .

الله الأكبر، الأكبر" .

واستعرض الشيخ دعاء للنبي في تهجه ونومه وفي أحوال أخرى تثبت المعاني

(١) انظر الشيخ الغزالي، :جدد حياتك "مرجع سابق، ص ١٨١ ـ ١٨٤ .

رؤية الشيخ الغزالي للتصوف ودوره وواقعه ٢٣/ ٠٤/ ١٤٤٠

السابقة [١].

وصدق الإمام في قوله عن هذا الصنف العاطفي غير المنضبط: "وأي عاطفة لا يصحبها إمام صحيح لأصول الإسلام وفروعه، وعمل تام بها، فليس لها عند الله وزن، وصدق العاطفة ليس عذراً للخلط العلمي، ولا للقول في دين الله بالهوى والرأي، فإن للإسلام ينابيع معروفة محصورة، تؤخذ أحكامه منها وحدها، ولا يؤذن لبشر ـ بالتزيد عليها، أو الانتقاص منها" [٢].

إن الدين "عقل وعاطفة، وعلم وأدب، ونظر صائب، وبصيرة نيرة" [٣].

وذكر الإمام كلمةً في هذا المعنى المهم للأديب الكبير أحمد أمين [٤]، هي قوله: "ليست قيمة الإنسان فيما يصل إليه من حقائق، وما يهتدي إليه من أفكار سامية، ولكن في أن تكون الأفكار السامية هي نفسه، وهي عمله، وهي حياته الخارجية، كما أنها حياته الداخلية" [٥].

وقد كرس الإمام حياته لحرب نوع من التدين المنتسب للإسلام، ومن سمات هذا التدين العابد ما يلي:

١ – الإهمال والانعزال عن آيات الله في الأنفس والآفاق.

٢ – البلادة وسط النشاط العمراني، والتقدم الحضاري.

٣ – الانطواء على النفس، وترك التفوق والنبوغ في العلم لمن يكرهون الله والمرسلين! [٦].

---

(٢) المرجع السابق، ص ١٨٤ ـ ١٨٨ .

(٢) "الجانب العاطفي..."، ص ١٠.

(٣) "مائة سؤال..."، ص ٢٢.

(٤) أحمد أمين: أديب ومفكر وكاتب مصري، ولد عام ١٨٨٦م، له دور كبير في إنشاء مجلات ثقافية مهمة، منها مجلة "الثقافة الأدبية"، عام ١٩٣٩م، ومجلة "الرسالة"، عام ١٩٣٦م، وأنشأ معهد "المخطوطات العربية"، التابع لجامعة الدول العربية، تولى القضاء فترة، ثم درس في كلية الآداب، وتولى عمادتها، امتازت كتبه بدقة التعبير، وعمق التحليل، وله مصنفات مهمة ـ رحمه الله. انظر كتابه "حياتي" .

(٥) "ركائز الإيمان...."، ص ١١٥ ـ ١١٧.

(٦) "ركائز الإيمان...."، ص ٤.

٤ – أداء طاعات محدودة القيمة، لكنهم ضخموا هذه القيمة، ورفعوها فوق قدرها.

٥ – اختلاق بدع ومحدثات لا أصل لها في الدين.

٦ – نسيان عزائم الإسلام وتكاليفه المهمة، وموازينه الحساسة في تقويم الخلق، والسلوك، وشتى المعاملات.

٧ – إيثار حديث واهن أو موضوع على حديث صحيح، واعتناق أقوال فقهية، ليس لها من أصول الفقه سناد.

٨ – تفسير القرآن، بطريقة منكرة غريبة، حيث تُخترَع معانٍ لا صلة لها بدلالات الألفاظ، ولا بتراكيب اللغة، ولا بالمأثور عن رسول الله -ﷺ-، ولا بالمروي عن أصحابه الذين تعلموا منه، ومشوا في أثره.

هذا التفسير المنكَر فتح لباب الفتنة والتأويل الباطل لدين الله، والتهجم على القرآن[1].

وقال: "إن كل تدين يجافي العلم، ويخاصم الفكر، ويرفض عقد صلح شريف مع الحياة، هو تدين فقد صلاحيته للبقاء، بله القيادة".

وأنكر ما يراه بعض المتدينين من ظنهم أن زكاة الروح ما تتم إلا بدمار الجسد، وضمان الآخرة ما يتم إلا بضياع الدنيا، مع تجهمهم لأسباب الحياة والارتقاء، وقال مبيناً التدين الصحيح: "التدين الحقيقي: إيمان بالله العظيم، وشعور بالخلافة عنه في الأرض، وتطلع إلى السيادة التي اقتضتها هذه الخلافة، سيادة على عناصر الكون وقواه.. الخ.

التدين الحقيقي ليس جسداً مهزولاً من طول الجوع والسهر، ولكنه جسد مفعم بالقوة التي تسعفه على أداء الواجبات الثقال، مفعم بالأشواق إلى متاع الحياة" [2].

(١) "الجانب العاطفي...."، ص ١٠، ١١.

(٢) "ركائز الإيمان...."، ص ٢٤.

المبحث الثاني:

أهمية علم التصوف، أو التزكية، واكتساب مقام الإحسان

وفيه إلى مطلبين:

المطلب الأول: أهمية علم التصوف أو التزكية ودوره.

المطلب الثاني: ضرورة اكتساب مقام الإحسان.

المطلب الأول: أهمية علم التصوف أو التزكية ودوره.

رأى الإمام أنه لابد أن يكون من بين العلوم الإسلامية، علم يقوم على رفع الإنسان إلى مقام الإحسان، علم يعالج العلل العقلية والنفسية التي تحجب المرء عن ربه، وتلصقه بالتراب، أو التي تهتم بأشكال العبادات، ولا ترتبط بمعناها وحكمتها.

علم تدرس فيه طرق تحويل الحقائق الدينية النظرية إلى خلُق لازم، وعمل دائم، وأسلوب في الحياة، معروف الهدف، منسوق الخطوات.

وذكر الإمام أن شر ما يصيب المتدينين هو تحول الطاعات إلى عادات تُؤدَّى في غيبة العقل، وغفلة الشعور [١]، فلا تلاحق عقولهم معانيها، ولا تحصل نفوسهم حكمتها! [٢].

وبين أن الله – تعالى – شرع الدين موضوعاً وشكلاً، معنى ولفظاً، يقظة نفسية، وحركة بدنية، فمن أخذ الظاهر من هذا كله، وترك الباطن فهو يعبث بالدين، ويتخذه لعباً ولهواً!.

وذكر أن الحقيقة التي يركز عليها علماء التصوف ورجال التربية والتزكية، هي: أن يلتزم المسلم بشريعته مبنى ومعنىً، أن ينفعل بتعاليمها لُباً وقلباً وجسداً؛ أن يرقى إلى مستواها، فكراً، وعاطفة وسلوكاً [٣].

"إن شرف الإنسانية – أولاً وأخراً – في صلتها بالله، واستمدادها منه، وتقييدها بشرائعه ووصاياه"[٤].

"إن محبة الله –ﷻ– والإخلاص لهن والتبتل إليه، والتوكل عليه، والصبر فيه، معان تعد في الطليعة من شُعب الإيمان، أو هي من أركانه الركينة" [٥].

---

(١) "ركائز الإيمان..."، ص ١١٠، ١١٤.

(٢) المرجع السابق، ص ١١٩.

(٣) "ركائز الإيمان...."، ص ١٢٢.

(٤) "الجانب العاطفي..."، ص ٩١.

(٥) "المرجع السابق"، ص ٦.

إن الإمام كان يرى أهمية علم التصوف أو التزكية، في تقوية الحب لله، وتحقيق العبودية الممتعة لصاحبه، فالتصوف "يحول المعرفة النظرية المجردة، إلى عاطفة قلبية مشبوبة، فالتكاليف تُؤدَّى برضا، والمعاصي تترك باستغناء واستعلاء" (١).

لذا سعى إلى تجلية حقائق هذا العلم، وتكميل ملامحه الإسلامية، بكشف الغطاء المضروب على جانب منها، خاصة وأن هذه الحقائق قد شيبت بما غض من فضلها، حتى تجهم كثيرون لها وضاقوا ذرعاً بمجرد ذكرها.

وعمل على تنحية الشوائب الغريبة التي أُلصقت بهذه الحقائق، والعودة بالمادة الإسلامية الصرف إلى موضعها الخالي منها، لتحتله إلى جوار زميلاتها من حقائق الإسلام الأخرى (٢).

وقد اعتنى الإمام بهذا العلم التزكوي الشامل، لأنه رآه يجيب عن أسئلته التي طرحها:

- كيف نربي في القلوب الإحساس بجلال الله والخضوع لعظمته؟.

- كيف نجعل اليقين ينزل من السطح، ليشتبك بالأعماق؟.

- كيف نحول معرفة الله إلى مذاق حلو، يطبع النفوس على الرقة، ويصفي السرائر من كدرها؟.

- كيف نجعل المرء مشتاقاً إلى ربه، فهو ببواعث من أشواقه يطيعه، ويسارع إلى مرضاته، وكيف نجعله هياباً لذاته، وهو بدوافع القلق ينفر من معصيته ويفزع من مساخطه...؟.

- كيف يشهد المرء ربه في مجالي السماوات والأرض، ويشهد أسماءه الحسنى، فيما يقع من حركة وسكون على امتداد الزمان والمكان؟" (٣).

هذه الأسئلة إذا أحسنا الإجابة عليها، وعشنا معانيها تم الإيمان، وعلا شأن

---

(١) "مائة سؤال عن الإسلام"، ص ٢١ بتصرف.

(٢) "الجانب العاطفي..."، مرجع سابق، ص ٧، ٨.

(٣) "ركائز الإيمان..."، ص ١٠٥، ١٠٦.

الإسلام!، وهذه المعاني قد أفاض في الحديث عنها علماء المتصوفة، ورجال التزكية. - برغم غلطات بعضهم -.

ولم تلقَ هذه المعاني، وهذا الجانب المهم من الثقافة الإسلامية، العناية المستحقة لدى جمهرة الفقهاء والمتكلمين!.

بل حدث اشتباك ومنازعات حادة بين الفقهاء والمفتين مع المتصوفة والعباد، وكلا الفريقين تجهم للآخر، ولم يستفد مما عنده.

- وكانت نهاية القطيعة بين الفريقين أن وُجد فقه لا روح فيه، وفقهاء لهم سمت الدين، وليس لهم قلبه الحاني الطيب.

ووُجد تصوف لا دراية له، ومتعبدون تحفل سيرهم بالخرافات والبدع.

ولا يعني هذا أن علماء الكلام والفقه - جميعاً - قد قصّروا في ميدان التربية وغرس التقوى، والأنس بالله في نفوس الناس، وأن هذا الفراغ المتروك هو الذي ملأه المتصوفة وحدهم .

وقد زاد الإمام هذه النقطة وضوحاً، فذكر أن علماءنا الأوائل كانوا يجمعون بين سعة العلم، وصدق الصلة بالله، والأجيال التي استمعت إليهم كانت تفيد منهم الأمرين معاً:

نضارة القلب المتجه إلى الله، وإشراق الفقه الذي يضئ الطريق إليه.

فهم علماء ومربون في وقت واحد.

وكانوا غير متخصصين في فرع واحد من علوم الشريعة، على النحو الذي اصطلح عليه الأخلاف.

وضرب الإمام مثلاً بالإمام البخاري، الذي كان عالِماً بالإسلام كله: من تفسير وفقه، وحديث وعقيدة وسيرة... الخ.

والميزة التي غلبت عليه وشُهر بها لا تدل إلا على تفوق فقط في هذه الوجهة من الدراسة، أو على عناية بها، فرضتها الظروف المحيطة.

ومثل ذلك يُقال في الخلفاء الأربعة، والأئمة الأربعة، ونظائرهم [1].

فعمر - رضي الله عنه - كان حاكماً عادلاً، ومربياً مؤثراً، وفقيهاً متيناً، وليس رجلاً سياسياً فحسب.

وأبو حنيفة [2] فقيه وسياسي وداعية إلى الله، وليس رجل دراسة فقهية فقط....

إن هؤلاء الأماجد كانوا يستقون مباشرة من الكتاب والسنة، واستضاءت ضمائرهم بصاحب الرسالة، وكانوا على اختلاف وظائفهم العلمية والعملية "رهباناً بالليل فرساناً بالنهار، جِناً في القدرة على الحياة، ملائكة في قيادها باسم الله" [3].

لقد أوضح الإمام أن الراسخين في العلم كانوا - ومازالوا - على درجة عالية من جيشان المشاعر، والاستبصار العقلي، وذكر منهم ابن تيمية [4] ، وابن القيم [5] والغزالي،

---

(١) ركائز الإيمان، ص ١٠٦ ـ ١٠٨.

(٢) الإمام أبو حنيفة، هو النعمان بن ثابت بن زوطي، التيمي، الكوفي، قدوة العلماء الأعلام، ولد سنة ٨٠هـ، بالكوفة، ورأى صحابة، منهم: أنس بن مالك، كان عابداً كريماً، ورعاً،، انتشر مذهبه بالكوفة والشام والعراق وما وراء النهرين، وغيرها من بلاد العالم، مولده سنة بضع وثمانين، وتوفى ببغداد سنة ١٥٠هـ. انظر "سير أعلام النبلاء"، ج ٦، ص ٣٩٩ ـ ٤٠٠، و"شجرة النور الزكية في طبقات المالكية"، للشيخ محمد بن محمد مخلوف، ط. المكتبة السلفية، ١٣٤٩هـ، ج١، ص ٢٧، ٢٨ .

(٣) "ركائز الإيمان...."، ص ١٠٨ ـ ١١٠.

(٤) ابن تيمية:(٦٦١ - ٧٢٨هـ) هو تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، ولد في حران، قرأ الحديث والتفسير واللغة وشرع في التأليف من ذلك الحين. بَعُدَ صيته في تفسير القرآن واستحق الإمامة في العلم والعمل، كان شخصا مؤثرا في نمو حركة الإسلام السياسي، دخل السجن سنة ٧٢٦هـ، ومكث فيه حتى مرض أياما يسيرة، ثم مات، ولم يعلم أكثر الناس بمرضه حتى فوجئوا بموته، وله مؤلفات كثيرة في العقيدة والتفسير والفقه والسياسة الشرعية، ومنها: (السياسة الشرعية - الجوامع - بين العقل والنقل، منهاج السنة، ...)، ومن أشهر تلامذته: (شمس الدين ابن قيم الجوزية - أبو عبد الله محمد الذهبي صاحب (ميزان الاعتدال)، وإسماعيل بن عمر بن كثير، ومحمد بن عبد الهادي المقدسي، وأبو العباس أحمد بن الحسن الفارسي المشهور بقاضي الجبل، وزين الدين عمر الشهير بابن الوردي)، ينظر: [الأعلام للزركلي: ج١/ ١٤٤].

(٥) ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١هـ)، هو: الإمام العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزُّرعي المعروف بابن قيم الجوزية، صاحب التصانيف المشهورة، لازم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، واستفاد منه كثيرًا، كان معروفاً بجمع الكتب، فحصَّل منها ما لا يحصر، كانت له أجود المصنفات، ومن أشهرها: "زاد المعاد في هدي خير العباد - إعلام الموقعين - مدارج السالكين - الفوائد، وغيرها كثير، وكانت رحمه الله. ينظر ترجمته في: البداية والنهاية لابن كثير: (ج١٨/ ٥٢٣: ٥٢٩) - تحقيق: د/ عبدالله التركي، ط١/ ١٤١٩هـ= ١٩٩٨م، دار هجر للطباعة =

وابن الجوزي [١]، والرازي [٢]، وغيرهم [٣].

إن قلب المؤمن «انفتحت أقفاله، وانفسحت أرجاؤه، وأشرق معنى الحب في جوانبه، فهو متعلق بربه، متتبع لآثاره في كونه، عاشق للخير، مبغِض للشر، يمتد مع كل شيء حسن، وينكمش مع كل شيء قبيح».

إن الدين الحق عقل مستقيم وضمير حي.

وذكر الإمام أن صلته بالله حسنت وقويت كثيراً، على إثر كلمات قرأها لهؤلاء الأئمة الكبار: الغزالي، وابن الجوزي، وابن تيمية، وابن القيم، وابن عطاء الله السكندري [٤]، مع ما بينهم من تفاوت المشرب، واختلاف النظرة.

إنهم جميعاً اتفقوا على "جعل عالَم الإيمان براقاً بالحب، مزداناً بمعية الله في الغدو

=

والنشر والتوزيع- مصر.، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد (شهاب الدين أبي الفلاح عبدالحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي الدمشقي، [ت: ١٠٨٩هـ]، تحقيق: عبدالقادر الأرناؤوط، ومحمود الأرناؤوط، [ج٨/ ٢٨٧: ٢٩٢]، ط١/ ١٤١٣هـ= ١٩٩٢م، دار ابن كثير- بيروت، الأعلام للزركلي: [ج٦/ ٥٦].

(١) ابن الجوزي (٥٠٨- ٥٩٧هـ): هو الإمام العلامة أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي التيمي البغدادي، علامة عصره وإمام وقته في الحديث، والوعظ والتفسير، فقيه حنبلي محدث ومؤرخ ومتكلم، من أشهر مصنفاته: "تلبيس إبليس - زاد المسير - مناقب عمر بن عبد العزيز، وغيرها"، وله في كل العلوم اليد الطولى، والمشاركات في سائر أنواعها، وله مشاركة في النظم، والشعر والأدب أثنى عليه جماعة كثيرة من أهل العلم، ينظر ترجمته في: البداية والنهاية لابن كثير: (ج ١٦/ ٧٠٦: ٧١١)، ووفيات الأعيان لشمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، الشهير بابن خلكان: ج ٣/ ١٤٠: ١٤٢، تحقيق: د/ إحسان عباس، ط/ دار صادر - بيروت، [بدون تاريخ].

(٢) الفَخْر الرَّازِي: (٥٤٤ -٦٠٦ هـ= ١١٥٠ -١٢١٠م) محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، أبو عبد الله، فخر الدين الرازيّ: الإمام المفسر، مولده في الري وإليها نسبته، ويقال له (ابن خطيب الريّ) رحل إلى خوارزم وما وراء النهر وخراسان، وتوفي في هراة. أقبل الناس على كتبه في حياته يتدارسونها. وكان يحسن الفارسية. من تصانيفه (مفاتيح الغيب)، و (لوامع البينات في شرح أسماء الله تعالى والصفات) و (المسائل الخمسون في أصول الكلام)، وغير ذلك. وله شعر بالعربية والفارسية، وكان واعظا بارعاً باللغتين، انظر: الأعلام : ٦/ ٣١٣ .

(٣) "مائة سؤال...."، ص ٢٢.

(٤) ابن عَطَاء الله الإسكندري (٠٠٠ -٧٠٩ هـ= ٠٠٠ -١٣٠٩ م): أحمد بن محمد بن عبد الكريم، أبو الفضل تاج الدين، متصوف شاذلي، من العلماء.. له تصانيف، منها :(الحكم العطائية - ط) في التصوف، و (تاج العروس - ط) في الوصايا والعظات، و (لطائف المنن في مناقب المرسي وأبي الحسن - ط) .توفي بالقاهرة. وينسب إليه كتاب (مفتاح الفلاح) وليس من تأليفه، انظر: الأعلام: ١/ ٢٢١- ٢٢٢ .

والآصال" [1].

وذكر الشيخ أن هؤلاء العلماء العظماء، "نمشي ـ نحن في ترابهم"، و"أجد أنني أِشبه بذرة تراب، إلى جانب هذه القمم التي يفخر بها التاريخ الإسلامي" [2].

وطالب بتعهد الناشئة والكبار بما يوجه عواطفهم وآمالهم إلى الله – ﷻ –، وضرورة إقامة ذلك على أسس فنية محترمة، مع ضرورة الاستعانة – في ذلك – بمقررات علم النفس، وما في الآداب الإنسانية الصادقة من تجارب وصور [3].

وبين أن "حاجة النفس الإنسانية إلى التهذيب والتزكية مثل أو أشد من حاجة العقل إلى الصقل والتثقيف".

إن بلوغ النفس درجة تحب فيها الخير وتستلذه، وتكره فيها الشر ـ وتزدريه، أمر يحتاج إلى مران أطول، يلتقي فيه كفاح الإنسان نحو الكمال، والتوفيق الإلهي لبلوغ الشأو المقصود [4].

إن الشيخ الغزالي يرى للتصوف دوراً عظيماً، مطلوباً، يتركز في عدة قضايا:

١ – الوصول والتمكن والثبات على مقام الإحسان، الذي بينه القرآن والسنة، والمتضمن عبادة الله كأننا نراه، فإن لم نكن نراه، فإنه يرانا – سبحانه –، وهذا الإحسان – كما بين الإمام – لا يتم في خلوات بعيدة عن ميادين الجهاد والإصلاح والفكر، بل يتم "مع التقلب في البلاد، والتعرض للشدة، والرخاء، والصحة والمرض، والنصر ـ والهزيمة... الخ".

٢ – تتبع آيات الله في الأنفس والآفاق، ومدارسة الماضي والحاضر، ومحاولة الارتقاء إلى مستوى كتاب الله، وسيرة النبي الكريم – ﷺ –، مع اليقين بأنه لا ارتقاء إلا بالاتباع والتأسي بسيد المرسلين.

٣ – العناية بصفاء النية من كل كدر، والإخلاص الكامل لله – تعالى –، في كل

(١) "ركائز الإيمان....."، ص١٠٥، ١١١.

(٢) "حوارات الشيخ الغزالي، السيرة والمسيرة"، ط/ ١، دار السلام، ٢٠١٢م، ص ٧٦.

(٣) "ركائز الإيمان...."، ص ١١٠، ١١٤.

(٤) "الجانب العاطفي...."، ص ١٠٤.

قول وعمل، ونوايا، وذلك بدراسة بواعث النفس، ورقابتها، ليتحقق التطهير الكامل للسر والعلن [1] "فإن النفس الإنسانية شديدة المكر، واسعة الحيلة، وأنها قد تحقق ما تهوى عن طريق، ظاهره الطاعة، وباطنه إشباع الهوى".

٤ – احتضان التصوف للكثير من العواطف الإسلامية، وفنون شتى للتربية، والأخلاق في مباحث علم التصوف، الذي تناول النفس الإنسانية، بالترقي في مدارج الكمال [2].

٥ – رؤيته لأهمية هذا العلم في إنهاض أمتنا، وتحقيق إيماننا، وإصلاح حياتنا، لأن هذا العلم "نبت في أكناف الإيمان والإسلام والإحسان، ونما على أغذية جيدة من العلم، والعمل، واستطاع أن يلون المشاعر الإنسانية، بصدق العبودية، ودفعها إلى التفاني في مرضاة الله، والحس الدقيق بوجوده، وشهوده، وجعل أصحابه يسعدون بمشاعرهم الباطنة.." [3].

٦ – جعل الإيمان النظري شعوراً نفسياً غامراً، وتحويله من عقل يتصور، إلى قلب يعي ويتحرك.

٧ – تهذيب النفس – على ضوء نسبها الإلهي ـ، حتى تكون بنمائها واكتمالها أهلاً للعبودية، ومقتضى ذلك أن يكون الإنسان مستجمعاً للفضائل، متنزهاً عن الرذائل، حتى يرشحه هذا الترقي لقبول الله ورضوانه.

٨ – النظر إلى الوجود الصغير في هذه الحياة، على أنه جزء من الوجود الكبير الممتد بعد الموت، فلا اغترار بالدنيا، ولا استيحاش من الله، ولا ضيق بالعودة إليه.

– وذكر الإمام أن هذه العناصر الثمانية معروفة في سيرة الرسول – ﷺ –، وأصحابه، بل معروفة في سيرة الأنبياء، وحواريهم، على اختلاف العصور.

وجمع حقائقها تحت اصطلاح علمي تصرف مألوف في المدنيات الإنسانية، ومن

(١) "مائة سؤال عن الإسلام"، ص ٢٢، ٢٣.

(٢) "الإسلام والطاقات المعطلة"، ، ص ٢٨.

(٣) "مائة سؤال عن الإسلام"، مرجع سابق، ص ٢٠.

هنا كانت نشأة علم "التصوف"، الذي بدأ سلوكاً ونمطاً في الحياة، قبل أن يكون علماً ينتمي إلى أسرة العلوم الدينية [١]، وفي مجال العاطفة الفوارة والقلب الخفَّاق بحب الله ورسوله، ولد التصوف الإسلامي الأول، دون أن يحمل هذا العنوان.

إن هذا العلم – في صورته المقبولة – "يجعل العابد عاشقاً للصلاة، آلِفاً للصيام، بذَّالاً للمال، متحلياً بالفضائل، نافراً من الدنايا، متحمساً للحق، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، متخففاً من مطالب النفس، متكبراً على إغراء الدنيا، مبتذلاً شخصه في خدمة الأمة، وإبلاغ الرسالة، وهداية الخلق، متتبعاً لشُعب الإيمان كلها، يقيمها في نفسه، وفيما حوله" [٢].

وقد بين الإمام كره البعض اسم أو مصطلح "التصوف"، وعلق على ذلك بقوله: "نحن لا نكترث لاختلاف الأسماء، إذا اتفقنا على حقيقة المسمى!،... ولا مُشَاحةَ في الاصطلاح..".

إن التصوف الإسلامي سماه البعض: علم القلوب، أو علم التزكية للأنفس، وسماه آخرون: علم الإحسان، بمقاميْه من مشاهدة ومراقبة!، وسماه جماعة من علماء النفس والأخلاق: علم البواعث على الأعمال.

وقد سماه الإمام "الجانب العاطفي من الإسلام"، وسعى إلى إخراجه من جحره، أو من صومعته ليكون طاقة محركة!.

وأوضح أن الواجب في هذا الأمر هو التفكير والعمل "داخل سياج محكم من توجيهات الوحي، وسنن صاحب الرسالة، ومنهاج سلفنا الصالح" [٣]، وقال: "إن العناوين لا تهمنى، وإنما يهمني الموضوع، يهمني أن أرسم الطريق لبناء النفوس على التقوى، وإيناسها في هذه الدنيا بذكر الله، وإلهامها كيف تستعد للقيادة، ببصيرة مجلوة، ورغبة عميقة، وثغر باسم" [٤].

---

(١) "ركائز الإيمان بين العقل والقلب"، ص ١٤٠، ١٤١.

(٢) المرجع السابق، ص١٥٠، ١٥١، ١٥٢.

(٣) "الجانب العاطفي من الإسلام"، مرجع سابق،ص١٠.

(٤) "ركائز الإيمان..."، ص ١٦.

وطالبَ بإحياء هذا الجانب المهم من مواريثنا العلمية الثمينة، وعدم مخاصمته، حتى لا يحرم الإنسان والأمة من بركات الأرض والسماء!، وألح على تحويل ذكر الله بالغدو، والآصال، إلى مسلك إيجابي فعَّال، يجعل أصحابه رهباناً بالليل فرساناً بالنهار، يكدحون في أرجاء الجو والبر والبحر، ساعين إلى صبغ الدنيا بصبغة التوحيد، كما هو هتاف الكائنات كلها!.

إن الضروري "جعل القلب متعلقاً بربه، يملك الدنيا كي يسخرها لخدمته، ويجمع المال والبنين، ليكونا قوةً للحق، وسياجاً يحتمي بهما!" (١).

وفي ذلك قال: "لقد استيقنتُ أنه لا يقتل الغرور والشره، وحب النفس وحب الظهور، والمكاثرة بالمال والجاه ... إلا الإيمان الحي، والتعلق الشديد بما عند الله – جل وعلا –.

– لقد رأيت من طغي عندما حكم، ومن غش عندما تعامل، ومن استكبر عندما استغنى، ومن أفسد أسرته وأمته عندما تمهد له الطريق .

وتأملتُ الدوافع إلى هذا كله، فلم أر إلا قلوباً خالية من الله ـ جل وعز ـ، بعيدة عن الشعور بعظمته ورقابته!، وإن همهمت بكلمات محفوظة عن الدين والوحي" (٢) .

وقال: "إن الإسلام كما أوقد مصابيح الفكر، احتفى بأشواق الفؤاد، واستحلى العاطفة الشريفة، بل حوَّل الإيمان النظري إلى شعور جياش بالخشية والرجاء، والتوكل الواثق، والحب الإلهي" (٣).

وإن اسم التصوف لم يعرف إلا في المائة الثانية للهجرة، وكان القوم يُلقبون بـ "الزهاد"، قبل ذلك.

وأخذ الإمام يذكر تعريفات عديدة عند علماء التصوف، منها ما ذكره حجة الإسلام، العلامة أبو حامد الغزالي، التصوف: تجريد القلب لله – تعالى – واحتقار ما

(١) المرجع السابق، ص ٤، ٥ بتصرف.
(٢) "علل وأدوية ..."، ص ٥، ٦ .
(٣) "ركائز الإيمان..."، ص ٤.

سواه".

أما العارف بالله الجيلاني [1] فقال عن المتصوف: الصوفي من صفا باطنه وظاهره، بمتابعة كتاب الله -ﷻ-، وسنة رسوله -ﷺ"-.

وقال أيضاً: "جميع الأولياء لا يستمدون إلا من كلام الله -ﷻ-، وسنة رسوله -ﷺ-، ولا يعملون إلا بظاهرهما".

وقال الجنيد [2]، سيد الطائفة: "من لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث لا يُقتدَى به في هذا العلم، لأن علمنا ومذهبنا مقيد بالكتاب والسنة".

وتابعه أبو سلميان الداراني [3]، فقال: "ربما تقع في قلبي النكتة من نكت القوم أياماً، فلا أقبل شيئاً منها إلا بشاهدين عدلين: الكتاب والسنة".

وقال بشر الحافي [4] : "رأيت النبي -ﷺ- في المنام، فقال لي: يا بِشر، هل تدري بم

---

(١) عَبْد القَادِر الجِيلاني (٤٧١ - ٥٦١ هـ = ١٠٧٨ - ١١٦٦م): هو عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي دوست الحسني، أبو محمد، محيي الدين الجيلاني، أو الكيلاني، أو الجيلي: مؤسس الطريقة القادرية. من كبار الزهاد والمتصوفين. ولد في جيلان (وراء طبرستان) وانتقل إلى بغداد شابا، سنة ٤٨٨ هـ فاتصل بشيوخ العلم والتصوف، وبرع في أساليب الوعظ، وتفقه، وسمع الحديث، وقرأ الأدب، واشتهر. تصدر للتدريس والإفتاء في بغداد سنة ٥٢٨ هـ وتوفي بها. له كتب، منها " الغنية لطالب طريق الحق " و " الفتح الرباني " و " فتوح الغيب " و " بالفيوضات الربانية "، انظر: الأعلام، ٤/ ٤٧ .

(٢) الجُنَيْد البَغْدادي (٠٠٠ - ٢٩٧ هـ = ٠٠٠ - ٩١٠م): هو الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزاز، أبو القاسم: صوفي، من العلماء بالدين. مولده ومنشأه ووفاته ببغداد. أصل أبيه من نهاوند، وكان يعرف بالقواريري نسبة لعمل القوارير. وعرف الجنيد بالخزاز لأنه كان يعمل الخز. وهو أول من تكلم في علم التوحيد ببغداد. له (رسائل) منها ما كتبه إلى بعض إخوانه، ومنها ما هو في التوحيد والألوهية، والغناء، ومسائل أخرى. وله (دواء الأرواح - مخطوط). انظر: الأعلام: ٢/ ١٤١ .

(٣) أَبُو سُليمان الدَّاراني: (٠٠٠ - ٢١٥ هـ = ٠٠٠ - ٨٣٠ م)، هو: عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العنسي المذحجي، أبو سليمان، زاهد مشهور، من أهل داريّا (بغوطة دمشق) رحل إلى بغداد، وأقام بها مدة، ثم عاد إلى الشام، وتوفي في بلده. كان من كبار المتصوفين. له أخبار في الزهد. من كلامه: (خير السخاء ما وافق الحاجة)، انظر: الأعلام: ٣/ ٢٩٣

(٤) بِشْر الحافي: (١٥٠ - ٢٢٧ هـ = ٧٦٧ - ٨٤١م)، هو: بشر بن الحارث بن علي بن عبد الرحمن المروزي، أبو نصر، المعروف بالحافي: من كبار الصالحين. له في الزهد والورع أخبار، وهو من ثقات رجال الحديث، من أهل (مرو) سكن بغداد وتوفي بها. قال المأمون: لم يبق في هذه الكورة أحد يستحيي منه غير هذا الشيخ بشر بن الحارث، انظر : =

رفعك الله – تعالى – من بين أقرانك؟ قلتُ: لا، قال: باتباعك سنتي، وخدمتك الصالحين، ونصيحتك لإخوانك، ومحبتك لأصحابي، وأهل بيتي، ذاك هو الذي بلغك منازل الأبرار".

وبعد ذكر هذه التعريفات، بين الإمام أن التصوف بعد أن طال عليه الأمد – قد اختلط بأوحال كثيرة، وتسللت إليه أفكار من النصرانية والوثنية الهندية، مما جعل البعض يؤثر الإعراض عن التراث الصوفي كله، لكثرة ما وجد في هذا التراث من دخيل وأباطيل!.

لكن الإنصاف يقتضي التمحيص، وميز الخبيث من الطيب! [1].

"وعن طريق الكتاب والسنة، يمكن تجديد التراث الديني كله، وخلق ثقافة إسلامية سليمة، كاملة، لا عوج فيها ولا شطط" [2].

وتعليقاً على كتابه "الجانب العاطفي في الإسلام"، بيَّن أنه قد يقال عنه من أناس من أهل السنة" لقد تصوَّف المؤلف!، وسيدعي أناس من المتصوفة أن المؤلف قد شرد عن الطريق!.

وختم تعليقه بقوله: "وحسبي أني استهديتُ ربي، وأنصفتُ هذا الدين من شتى الأفهام الحائرة" [3]، وقال: "المهم أن تتوقد روحانية الإنسان من خلال كيانه المادي، وتشرئب عواطفه إلى السماء، بدل أن يخلد إلى الأرض، وأن يطالع أمجاد الألوهية فيما يرى ويسمع، ويتجافي عن دار الغرور، ويطمئن إلى دار الخلود" [4].

وقد حذر الإمام من العبارات الصوفية المشوشة، غير الواضحة، الملتبسة في معانيها، وطالب باستبعادها من ميدان التعليم والتربية، مهما التُمس لها من الشروح،

=

الأعلام: ٢/ ٥٤ .

(١) "ركائز الإيمان بين العقل والقلب"، ص ١٥٢ ـ ١٥٤.

(٢) "المرجع السابق"، ص ١٥٦.

(٣) "الجانب العاطفي...."، ص ١٤.

(٤) "مائة سؤال..." ص ٢٣.

رؤية الشيخ الغزالي للتصوف ودوره وواقعه ٢٣/ ٠٤/ ١٤٤٠

وقصد المجاز، لا الحقيقة! [1].

وبين أنه قد أودع كتابه "ركائز الإيمان بين العقب والقلب"، منطقاً عقلياً صارماً، مع فيض كبير من أشواق الروح إلى معرفة الله، ومعاملته، وتسبحيه وحمده.

وتناول الإمام في هذا الكتاب عِلْمَيْ الكلام والتصوف من جانب، رآه أرشد وأسد[2].

(١) "الجانب العاطفي...."، ص ٧٥.

(٢) "ركائز الإيمان...."، ص ٤.

رؤية الشيخ الغزالي للتصوف ودوره وواقعه ٢٣/ ٠٤/ ١٤٤٠

المطلب الثاني: ضرورة اكتساب مقام الإحسان.

ذكر الإمام أن القرآن الكريم مشحون بمئات الآيات التي تغرس جذور الإحسان في القلوب، وهي تعالج كل ما يعرض لها في الحياة من أعمال.

- وأكد أن حديث الإحسان « أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1] ، ليس وصفاً لشخص يصُفُّ قدميه للصلاة، أو يلهج لسانه بالذكر فحسب.

"إنما هو وصف لإنسان يقيم أوامر الله كلها، في شئون الحياة كافة، ومجال الإحسان رحب الدائرة، حدوده وظيفة الإنسان في الحياة، من المهد إلى اللحد" [2].

"وليس محسناً من تراه في نصف أعماله ردئ التصرف، غبي السلوك، وفي نصفها الآخر مجيداً، مستحب السيرة...

والمسلم -من الناحية الدينية- لا يسمى محسناً، إلا إذا استجمع الكمال الحسي، فيما أدى من عمل، والصفاء النفسي - أعني قصد الله - فيه".

و"الإحسان ليس جودة ذهن طبيعته الغفلة، أو يقظة نفس طبيعتها الركود، إنه خليقة مستقرة، وملكة تتكون من حب الإتقان، وهواية الكمال، وإدمان الذكر لله، وطول الشعور بصحبته" [3].

- "وبين أن الإحسان ليس "تجويد جزء من العبادات، وإهمال أجزاء أخرى، قد تكون أخطر وأجل، وإنما الإحسان أداء فروض العين، وفروض الكفاية، وتناول شئون الدنيا، وشئون الآخرة معاً.

- هو إشراب الحياة الإنسانية حقائق الأمر الإلهي، وإضفاء صبغة السماء على أحوال الأرض.

- وهو ترقية كل عمل بذكر الله فيه، لا الفرار من الأعمال بدعوى ذكر الله في العراء".

---

(١) الحديث أخرجه الامام مسلم في صحيحه ،كتاب الإيمان ،باب معرفة الإيمان، حديث رقم٣٤ .

(٢) "الجانب العاطفي...."، ص ٧٨.

(٣) "المرجع السابق"، ص ٨٣.

ووضح أن "الإحسان مراقبة ومشاهدة، والرقابة الإلهية لا تتناول عملاً، وتدع آخر، بل تتناول الأعمال كلها:

- من اللقمة تضعها في فم زوجتك، كي تبني البيوت على الحب.
- إلى الرصاصة تطلقها على عدوك في ساحة الوغي، كي يُبنى العالم على العدل.
- من الثوب تلبسه، لتكتسي به، وتتزين فيه.
- الإحسان يشمل الأحوال والأعمال جميعاً".

وذكر الإمام أن المسلم لا يحتبس داخل صومعته، محدودة الأركان، يملأها بالخيال الجامح، بل صومعته "هذه الأرض، ذات الطول والعرض، يملأ جنباتها بالعمل المتقَن، والواجبات المطلوبة" [1].

- إن الإمام حذر من وهم عند البعض، في حديث جبريل - عليه السلام - مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بشأن الإسلام والإيمان والإحسان [2]، هذا الوهم يتمثل في تصورهم أن كلمات الإسلام والإيمان، والإحسان، مراتب، يسلم بعضها إلى البعض الآخر، وأن بينها فواصل وفجوات، أي أن الإسلام قد ينفك عن الإيمان، وأن الإيمان قد ينفك عن الإسلام، ثم جاء في هذا العصر من ظن الإحسان منزلة يتوصل إليها بغير الفروض المشروعة والعقائد المقررة.

وبذلك أصبحت الكلمات الثلاث ترمز إلى حقائق شتى، لا إلى دين الله الواحد، وهذا شرود بعيد.

وقد رد الإمام على هذا الوهم، في عدة نقاط مهمة:

أ - إثبات القرآن تلازم هذه المعاني وتساوقها في بيان حقيقة الدين، من ألفه إلى يائه، فعشرات الآيات التي تصف هذا الدين وتشرح تعاليمه، تذكر ضمن هذا الوصف والشرح كلمات الإسلام والإيمان والإحسان.

ومن الآيات التي ذكرها الإمام، قول الله - تعالى - واصفاً المؤمنين في صدر سورة

---

(١) "الجانب العاطفي ....."، المرجع السابق، ص ٧٥، ٧٦ .

(٢) الحديث سبق تخريجه في الصفحة السابقة.

النمـــل: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣﴾[1] وقال - تعالى - يصف المحسنين، صدر سورة لقمان: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾[2].

فقد رأينا أن صفات النوعين (المؤمنين والمحسنين) متحدة معاً!.

مما يبين أن حقيقة الدين واحدة، وأن أوصاف الإسلام والإيمان والإحسان التي تعرض له هي شروح لوجوه شتى منه، وليست مراحل مغايرة له أو بعيدة عنه، وإن كان العنوان الذي شاع علماً على هذا الدين، بل صفة للأديان السماوية كلها، وسمة للفطرة الإنسانية السليمة، هو الإسلام[3].

وأضاف الإمام: "إن الدين الذي نزل أمين الوحي لتوضيحه هو الإسلام إن نظرنا إلى السلوك الظاهر والعمل البين، وهو الإيمان إن نظرنا إلى اليقين الباعث، والعقيدة الدافعة.

وهو الإحسان، إن نظرنا إلى كمال الأداء، والوفاء على الغاية عند اقتران الإيمان الواضح بالعمل الصالح.

بل هو جملة هذه المعاني، لا ينفصل أحدهما عن الآخر، عند التصور الكامل".

والحديث المتناول للإيمان والإسلام والإحسان يشرح الحقيقة الصحيحة للدين.

فالإيمان إذا صح لابد أن ينتج العمل، والعمل إذا صح لابد أن يرتكز على الإيمان.

والإحسان إذا صح لا ينشأ إلا من إيمان راسخ، وعمل كامل[4].

- إن الإيمان حسن معرفة لله، وثقة نامية فيه، والإسلام استجابة مطلقة لتعاليمه، وتحر دقيق لرضاه، فإذا تجمعت هذه العناصر، وجرت فيها مشاعر اليقين، وأينعت فيها صوالح الأعمال، فإن المرء يكون - لا محالة- محسناً[5].

---

(١) سورة النمل: آية رقم ٢ - ٣.

(٢) سورة لقمان: آية رقم ٢ - ٤.

(٣) "الجانب العاطفي..."، ص ١٨ ـ ٢٠.

(٤) "المرجع السابق"، ص ١٧، ١٨.

(٥) "الجانب العاطفي..."، ص ٥٨.

رؤية الشيخ الغزالي للتصوف ودوره وواقعه ٢٣/ ٠٤/ ١٤٤٠

إتقان كل الصناعات النافعة من الإحسان:

- بين الإمام أن الإسلام دين يبغي الاستيلاء على الحياة، وإقامة عوجها، ومحاربة طواغيتها، وعدة هذا الجهاد تتطلب أمداداً موصولة من النشاط والخبرة، والتضلع في علوم الحياة، والتمكن من أشتات الجرف.

وينبغي أن تبلغ براعة المسلمين في هذه الميادين حد التفوق، فإذا قورن بهم غيرهم في النواحي المدنية والعسكرية، كانوا أرجح كفة، وأهدى سبيلاً.

وإتقان هذه الأمور في طليعة درجة الإحسان التي شرحها الحديث« أن تعبد الله كأنك تراه» .

وقال:

"إن مهنة صيدلي، أو مهنة طبَّاع، فرائض على المجتمع الإسلامي، كالصلاة والصيام سواء بسواء، غاية ما هناك من فرق أن الصلاة والصيام لا يتخلف عن أدائها أحد، أما فروض الكفاية فيُختار لها من يصلح لها، ومن لم يصلح لحرفة معينة صلح لغيرها وكلف بالقيام بها.

- إن عبادة الله في الحقل كعبادته في المحراب، وعبادته في المصنع كعبادته بالسعي والطواف، وتشبُّع المرء من الطعام ليقوى على الجهاد، كتقلله من الطعام في عبادة الصيام، وصور الطاعات شتى، ومكان الإحسان فيها لا يتناهى.

- إن إجادة العمال كلها غاية من وجود الإنسان على ظهر هذه الأرض ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾[1][2].

وقد وضح الإمام أن الله - ﷻ- لا يهب المعرفة والحكمة إلا إنساناً تعود الإحسان في شئونه كلها، وتمكن من ضبط نفسه وإحكامه أمره، وتسديد خطاه، ومشى على الصراط المستقيم، لا تهزمه وساوس الشر، ولا ترده عن غايته غمزات الشياطين .

---

(١) سورة الملك: آية رقم ١ -٢.

(٢) "الجانب العاطفي..."، ص٦١، ٦٢.

رؤية الشيخ الغزالي للتصوف ودوره وواقعه ٢٣/ ٠٤/ ١٤٤٠

ودليل ذلك قوله تعالى عن عبده ونبيه يوسف – عليه السلام –: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٢﴾[1] ، أي كما أفضلنا وأعطينا يوسف – عليه السلام –، من حكمة وهداية وعلم وتمكين، جزاء اكتمال رجولته وصدق نيته، وشرف سيرته، يؤتى من يقتدون به في إحسان العمل وإجمال السلوك [2] .

(١) سورة يوسف: آية رقم ٢٢.

(٢) "جدد حياتك"، مرجع سابق، ص ١٥٤ .

المبحث الثالث:

عنوانه :

رصد الإمام مظاهر انحراف

عند بعض المتصوفة.

إن الشيخ الغزالي قد أولى قضية "التصوف"، عنايةً بالغة في كتبه، وخطبه ومقالاته، وجعل له مكاناً متميزاً في مشروعه الفكري والإصلاحي.

- وجدنا ذلك في كتبه: "الجانب العاطفي من الإسلام"، و"ركائز الإيمان بين العقل والقلب"، و"دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين"، وكتاب "كيف نفهم الإسلام"، و"تأملات في الدين والحياة"، و "مع الله، دراسات في الدعوة والداعية"... وغير ذلك من كتب وخطب، وفي كتاب "جدد حياتك" رأينا الإمام يتحدث عن قضايا بارزة في علم التصوف والتزكية، مثل مبحث: "عش في حدود يومك"، و" نقاء السر- والعلانية"، و"روحانية الرسول"، و"محاسبة النفس".

- إن الإمام كان يرى أن التراث الصوفي ضخم هائل، به دراسات جيدة للنفس الإنسانية، وكيف تتخلص من أدوائها، وكيف تمضي- إلى الله في طريقها منقاة مشرقة، لكنه يشبه منجماً مليئاً بنفائس كثيرة، وبتراب كثير، ومن يدخل هذا المنجم قد يكون ساذجاً، لا يخرج إلا بقفف من التراب، وقد يكون ذكياً لبيباً، فيتمكن من استخراج كنوز ونفائس، يستطيع الانتفاع بها. لذا يحتاج إلى خبير محترم يدخل فيهن ليخرج بالنفائس، ويبتعد من الأتربة.

ويتأسف الإمام لأن الأمة الإسلامية لم تحسن الانتفاع من كنوز التصوف التي لديها[1].

وبين حاجة كتب التصوف إلى خصائص المنطق العلمي، الذي يقوم على الثبات والعموم، لا على وجهات النظر الخاصة.

وبيَّن أن كتب التصوف - عامة - أشبه بمقالات الأدباء، وعواطف الشعراء، تصور الإحساس الخاص لصاحبه أكثر بما يصور حقائق علمية قيمة، بالإضافة إلى وجود أخطاء مزعِجة بها، ومن الخطورة بمكان أن يتناولها رجل الشارع، فلا يدري ما هو مستقيم منها وما هو معوج، أو ما هو ذوق خاص، وما هو حقيقة عامة.

وطالب ببذل جهاد علمي كبير، لتجريد مواريثنا الثقافية من الظنون والأوهام

(١) "حوارات الشيخ محمد الغزالي، السيرة والمسيرة"، ص ٨٥، و"جدد حياتك"، ص ٢٠٣ .

التي علقت بها، وإعادتها إلى السمات المأثورة عن كتاب الله وسنة رسوله، وهي سمات الحق واليقين فيما تتناول من قضايا، أو تصدر من أحكام [1].

وقد ذكر الإمام تجربته مع الدراسة الأزهرية، التي غاب عنها نواحٍ مهمة، منها الجانب التربوي التزكوي، فذكر دراسته لفقه الصلاة، وحفظه من واجباتها بضعة عشر، ومن سننها فوق الخمسين، ومن فروضها وشروطها كذا وكذا، واستغرق ذلك وقتاً طويلاً.

ومع ذلك فلم يُعتَن ببيان وتدريس وغرس روح الصلاة، من الخشوع المحتم في حضرة الله، وامتلاء القلوب بعظمة الله وجلاله.

ويعلق الإمام على ذلك بقوله: "لقد درسنا الشكل بدقة، واستوعبنا من التعاريف والضوابط الكثير..، أما موضوع الصلاة فربما عرض له بعض المدرسين الأتقياء، بكلمات قلائل وحسب..!!".

وذكر درساً للتفسير حول آية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [2].

وكان أنموذج شرح الآية هكذا: الجملة الأولى فيها قصر موصوف على صفة، فما سر هذا القصر؟، والجملة الثانية جاءت بعد اسم نكرة، فهي صفة، والجملة الثالثة تضمنت استفهاماً إنكارياً، بيانه كذا، والجملة الرابعة، فيها الشرط والجزاء يدلان على خسارة المرتد واستغناء الله عنه، أما الجملة الخامسة، ففيها وعد الله بمثوبة الشاكرين.

هذا هو التفسير الذي يجيء فيه الامتحان!.

ويعلق الإمام على ذلك بقوله[3]: أما التنويه بالوفاء للمبدأ، وإن مات ممثله، أما تحديد وظيفة المرسلين بأنها البلاغ الذي يقف كل امرئ بين يدي الله مسئولاً عن نفسه.

أما النعي على هؤلاء الذين يعبدون الله على حرف، والذين يفرون من الميدان عند

(١)"الجانب العاطفي..."، مرجع سابق، ص ٧.

(٢) سورة آل عمران: آية رقم ١٤٤.

(٣)"الجانب العاطفي ..."، ص ١٢، ١٣.

أول مصاب.

أما تعيين قيمة الحياة الدنيا بالنسبة لحملة المبادئ ولسائر الناس.

أما تعليق القلوب بمولى النعم، وبعث الهمم على الارتباط به والبذل له، والفناء فيه وحده.

أما توضيح معنى الشكر على نعمة الإسلام، وتوفيق الإيمان الذي ختمت به الآية، أما ذلك كله فإن أحداً لا يعرض له، ولا يسأل عنه، مع أنه لباب التفسير، وما إعراب الجمل واستبانة وجوه البلاغة، وتعرف شتى الأحكام إلا إطار لإبراز هذه المعاني التي تدعّم اليقين، وتربي الإخلاص، وتعلم التضحية، وتدرب على الجهاد" [1].

وفي تعليقه على دروس مادة " التوحيد" التي تناولها أثناء دراسته الأزهرية، يقول: "كنت أرقب- عن كثب- ما تخلقه دروس التوحيد في كتبه المقررة، فما كنت أجد فارقاً يذكر- لدى السامعين- بينها وبين شروح المعادلات الجبرية مثلاً!.

كلاهما ترويض للعقل، فكان الطالب يذكر طائفة من الأدلة على الوجود الدائم لواجب الوجود، ولا يستشعر في قرارة نفسه عظمة الخالق المتعال، أو يختلج في بدنه عرق من الرغبة أو الرهبة، نحو من سواه، وألهمه فجوره وتقواه".

ويتساءل الإمام: "أفهكذا تدرس العقيدة؟!" [2].

وقد ذكر الإمام تجربةً له في تزكية نفسه وتربيتها في صدر شبابه، حين كان دقيقاً في محاسبة نفسه، فرسم برامج قصيرة الأجل، للتطهر مما يحقره، من خلال وأعمال، واستعان بإحدى المفكرات السنوية، لإثبات الأطوار التي انتقل بينها من الناحيتين الذهنية والنفسية، هذه التجربة لم يستطع الشيخ استدامة أسلوبها، لأنه طلب النتائج المستحبة إليه بسرعة، على حين أنه كانت تحيط به ظروف لا تمكنه من تحقيق ما أحب واشتهى! .

ـ لقد مزق هذه المفكرة في ساعة يأس، لأنه نظر في صفحاتها المدونة بأمانة،

(١) "الجانب العاطفي..."، ص ١٣.

(٢) الشيخ محمد الغزالي "عقيدة المسلم"، ط٥، دار الدعوة، ١٤٢٩هـ، ص٢٧.

رؤية الشيخ الغزالي للتصوف ودوره وواقعه ٢٣/ ٠٤/ ١٤٤٠

فوجدها لا تشير إلى أي تقدم، لقد كانت المفكرة أشبه بملف مريض، لا تتغير حالته مع عِظم وعناء السهر [1].

وقد أوضح خطأه في الاستجابة لهذا اليأس، لأنه نظر للأمر من ناحية ضيقة؛ ناحية الحصول على نتائج معينة في أيام محدودة، غافلاً عن النفس الإنسانية التي تكتنفها طباع سيئة، وعوائق بيئة لا حصر لها!، ويعلق بقوله: إن ترويض النفس على الكمال والخير، وفطامها عن الضلال والشر يحتاج إلى طول رقابة، وطول حساب ...، لابد من حساب دقيق، يعتمد على الكتابة والمقارنة، والإحصاء واليقظة ...، إنه بناء نفس، وإنشاء مستقبل".

- إن الإمام يقر أنه في ميدان الرياضة النفسية كان يتعسف الطريق- أحياناً-، وذلك لقلة المرشدين المربين، الذين يرعون الناشئة، مع ندرة في الثقافات التي تأخذ بناصيتهم إلى الصراط المستقيم .

وللإمام تجربة أخرى مع المقابر، وخرافة الأشباح التي تظهر بالليل، حيث تسلل إليها، ليعالج الأمر بنفسه، وليدفع عن نفسه الفزع من الخرافة، بإكراهها على مواجهة ما تخافّ.

وقد أتعبته هذه التجارب، لكن لم يأسف على ما بذله من جهد، أخطأ فيه أم أصاب، ويعلق قائلاً: "فلأن أشتط في حساب نفسيي أفضل من أن أدعها تنطلق من غير حساب" .

وحقاً ما قاله: "إن في بلادنا أزمة في المربين الأخيار" [2] .

بعض مظاهر الانحراف لدى بعض المتصوفة:

١- التصوف الفلسفي المنحرف:

تصدى الإمام بقوة للتصوف الفلسفي المنحرف، الذي نقل عن الهنود واليونان

(١) الشيخ محمد الغزالي، "جدد حياتك"، ط٩،نهضة مصر،٢٠٠٥،ص ٢٠٠ ـ ٢٠٣ .

(٢) "جدد حياتك، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤ .

الأقدمين، والبوذية والنصرانية، عقائد الحلول والاتحاد، ووحدة الوجود، وأفكاراً أخرى فاسدة، فقد كان غزواً ثقافياً عقائدياً، ماكراً، قصد به لفت المسلمين عن عقائدهم ومناهجهم، ورسالتهم، وإشاعة أفكار ضالة لخلق أمة لا انتماء لها، أمة ثرثارة، كسول، منقطعة عن كتاب ربها، وسنة نبيها، لا دور لها إلا تحريف الكلم عن مواضعه، واختراع معان فاسدة للآيات، والأحاديث، والاسترسال مع الأحلام والخيالات [١].

إن بعض المتصوفة قدم هذا الفكر الفسلفي المنحرف للبيئة المسلمة على أنه العلاج الناجع، لكنه كان السم الناقع، أُفسِد به الدين والمسلمون [٢]، وكان بعيداً عن الإسلام، بعيداً عن المنطق الديني، بعيداً عن الضوابط الفقهية التي تُدَركُ بها حقائق الدين [٣].

- وذكر أن التصوف إذا ذُكِرَ - عند البعض - تراءت للعين صور شائهة لرجال يتبعون طرقاً شتى، وتنظم في المناسبات الدينية مواكب لها بغام منكر، تخدم السلطات الغاشمة، وتحيي البدع والخرافات، وقلما ارتفعت لها راية في ميدان جهاد.

هذه الصورة الشائهة لا علاقة لها بالتصوف الحقيقي!! [٤].

وبين أن الفساد الذي حدث للتصوف جزء من الفساد الذي لحق جملة العلوم الدينية، وفي مقدمتها الفقه، والتفسير، والكلام، والحديث... الخ [٥].

٢- مزاعم فاسدة متعلقة بالغيب:

تناول الإمام بالنقد الشديد مفاهيم منحرفة في مقال لعالم صوفي، تحت عنوان: "مراتب أهل الغيب"، ادعى فيه أن للصوفية - بحسب مراتب الأذواق، والكشوف والمقامات - أقوالاً شتى في مراتب السادة، (أهل الباطن)، المعروفين عندهم باسم (أهل الغيب)، أو (أهل الديوان)، وزعم أن أهل الديوان، الذين هم كبار أصحاب الوظائف

(١) "الجانب العاطفي من الإسلام"، ص ٣، و"مائة سؤال.."، ص ٢٠.

(٢) "الإسلام والمناهج الاشتراكية"، ، ص ٢٥٠ بتصرف.

(٣) "خطب الشيخ الغزالي"، ج٢، ص ١٣٧ بتصرف.

(٤) "مائة سؤال...."، ص ٤٢٠ .

(٥) "ركائز الإيمان..."، ص ١٥٥.

الغيبية يجتمعون – أرواحاً وهيولاً – في المعاهد الثلاثة المقدسة: الحرم المكي، والحرم النبوي، وبيت المقدس، ثم في أماكن مقدسة أخرى يُكشف عنها لأهل القلوب على توقيت وترتيب دقيقين.

هذه المفاهيم المنحرفة أنكرها الإمام، مقرراً أنه ليس للخواطر أو الإلهامات أو الرؤى أو الخيالات أي موقع من مصادر التشريع، وقسم السمعيات من ديننا يشمل الأمور الغيبية التي لا تُعرف إلا عن طريق المعصوم، فالصراط والميزان، وثواب القبر وعقابه، وشئون الملأ الأعلى، وبعض الأوصاف الإلهية، كل أولئك لا ينفرد العقل بإدراكه، ولا سبيل للبشر إليه إلا بتوقيف من الشارع نفسه[1].

ولذا، من زعم أن حملة العرش الثمانية تحتهم ستة عشر ملكاً، ثم اثنان وثلاثون ملكاً،.....، وهكذا، متواليات هندسية، هذا الزعم لا يسنده عقل ولا نص، ويعد إقحاماً لجملة من المعلومات الغريبة على قسم السمعيات في ديننا!.

ويتساءل الإمام: "لماذا يريد بعض إخواننا أن يقرن التصوف بهذه المبتدعات والغرائب المنكورة؟، إن التصوف عند رجاله الأوائل طريق تربية نفسية صالحة، وتدريب على مراقبة الله ومشاهدته فيما نفعل ونترك".

وختم كلامه بقول: "أخشى إذا حرص صوفية العصر على التشبث بغير الكتاب والسنة، أن يجنوا على التصوف جملة وتفصيلاً، فيُجتاح من أصله".

وبيَّن الإمام أن الأمة الإسلامية حبست نفسها، أو حبستها ظروف سيئة في جملة من العبادات، لا تتجاوزها، فإذا اتسع وقتها، وشاقتها الطاعة كررت ما تعرف، فضمت إلى صلاة الفريضة – مثلاً ـ صلاة نافلة، فإذا اتسع الوقت أكثر تنفلت أكثر!.

بل كثيراً ما يخترع البعض من عنده عبادات لا أصل لها، ليزداد بها قربى إلى الله![2].

وتساءل الإمام مستنكراً: "لماذا انفتح باب الاختراع في الدين وهو شر؟، ولم ينفتح باب الاختراع في الدنيا، وهو الخير؟.

---

(١) "مائة سؤال ..."، ص ٤٢٠ .

(٢) "مائة سؤال..."، ص ٤١٧ـ٤١٩.

- ولماذا كرر الأتقياء الصلوات، والصيام، والذكر والاستغفار، وزادوا أرصدتهم من النوافل هنا، على حين قلت أو صغرت الأرصدة في ميادين الأمر والنهي والجهاد المدني والعسكري، والاحتراف والتطواف بالبر والبحر، ومسابقة الأمم في تنمية النشاط العمراني، وتطويعه لدعم الحق، ومساندة الخير؟!".

وقد ذكر الإمام أن الفساد السياسي والقمع السلطوي لجماهير الناس هو السبب الرئيسي- وراء انهيار الأمة، وضياعها ديناً ودنيا، ووراء توقف العبادات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وسائر الأنشطة الحضارية، مما جعلنا في ذيل الأمم!.

وبين أن الإرهاب والبطش من قبل الحكام جعل الرجل التقي قد يدفع رأسه ثمن كلمة صادقة صريحة، يقولها لوجه الله، وقد تصادر أموال من يسعي لنشر- الحرية والإباء والكرامة في المجتمع، "وقد يبرز في ميدان ثقافي أو أدبي أو صناعي فإذا هو يساوَم: أيعطى ولاءه للحاكم الفذ، أم يختفي؟، أما الحياد فلا!!".

لذا، فالفرار من هذا البلاء أولى، ولو إلى مجالس ذكر تُبتدَع، أو خلوات قصيَّة تُقصَد، ويعتزل بها المجتمع!! [1].

وذكر أن "التعبد المقبول أساسه الاتباع الدقيقُ، وتحري مرضاة الله ورسوله".

لذا، لابد من معرفة أصيلة بالدين، حتى يصح العمل به وله [2].

٣- احتقار البدن وسحقه:

حذر الإمام من فهم خاطئ لدى بعض المتدينين، يتمثل في احتقارهم للبدن، وزعمهم أن التسامي لا يحصل إلا بسحقه، وأن الحياة الأخروية لا وجود للبدن فيها، والنعيم أو الجحيم معنويان فقط!.

هذا الفهم الخاطئ سرى إلى بعض متصوفة المسلمين، وحسبوه دلالة ارتقاء وتجرد، فظلموا بهذا المسلك دينهم، وأوقعوا خللاً سيئاً في موازين الجزاء، كما أقامها

(١) "المرجع السابق"، ص ٣١٦-٣١٨.

(٢) "ركائز الإيمان..."، ص ١٨٢، ١٨٣.

الكتاب العزيز، وقلدوا أتباع الديانات المحرفة في الجور على الطبيعة البشرية، وبذلك أفسحوا للمذاهب المادية طريق التقدم والسيادة.

٤- تحقير عبادة الرغبة الرهبة:

إن البعض حقر عبادة الرغبة والرهبة، وأشاعوا أن من الهبوط أن تطيع الله طلباً لجنته، أو تدع عصيانه خوفاً من ناره، حتى توهَّم الناس أن الأمل في الجنة، والخوف من النار ليس شأن العباد الصالحين! (١).

وقد طالب الإمام كل من يكتب في التصوف بإدمان النظر في كتاب الله، مستخرجين منه المعاني والغايات، وبذلك وحده ينصفون أنفسهم وطريقهم، مع رفضهم كل ما يناقض كتاب الله - تعالى -.

لذا، أنكر الإمام قول أحد المتصوفين له" إنه من الخساسة أن تعبد الله منتظراً أجراً!!

فرد الإمام عليه: "من العبودية أن تستبشر بفضل الله، وأن تُوجل من عقوبته، وأن تعرف قدرك، وتلزم حدك، أين تريد أن تضع نفسك؟!.

إن الله قال عن نبيه إبراهيم: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾(٢) فهل أنت فوق الأنبياء استغناءً عن الأجر الإلهي؟".

وتابع رده: "وقال - تعالى - عن المؤمنين الموفقين: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾(٣)، ووصف - سبحانه - عاقبة الصادقين، المضحين بأنفسهم في سبيل ربهم، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾(٤).

---

(١) "مائة سؤال..."، ص ٤٧ ـ ٥٠.

(٢) سورة العنكبوت: آية رقم ٢٧.

(٣) سورة الأحزاب: آية رقم ٤٤.

(٤) سورة الحديد: آية رقم ١٩.

فهل أنت في مكانة أخرى، غير ما أعد الله للشهداء والصالحين، مكانة الزاهد في أجر، أو الرافض له؟، ما هذا الغرور؟.

- إن الجنة وعد الله لعباده، فنِعِمَّا هي، وشكراً لمن أعدها للمتقين، وهنيئاً لمن يصير إليها، يمرح في بحبوحتها، ويسعد بربه الذي طالما صلى وصام من أجله.

إنه في هذه الجنة، يشهد من كان يعبده بالغيب، ويتلقى فضله في قلبه وعلى بدنه، لذات مادية معنوية متشابكة، لا انفصام بينها، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝٢٠ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝٢١ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ۝٢٢﴾ (١) (٢).

٥- ادعاء تناقض الشريعة والحقيقة:

أثبت الإمام أن الشريعة إصلاح للظاهر والباطن معاً، وهي عبادة بدنية، وإحسان خلقي، لا ينفك أحد هذه العناصر عن الآخر.

وقد أنكر الإمام علي من ادعى أن الحقيقة شيْ، والشريعة شيء آخر، و "أن الأعمال عند أهل الفن - يعني فن التصوف - على ثلاثة أقسام: عمل الشريعة، وعمل الطريقة، وعمل الحقيقة، أو تقول: عمل الإسلام، وعمل الإيمان، وعمل الإحسان، أو تقول: عمل أهل البداية، وعمل أهل الوسط، وعمل أهل النهاية.

فالشريعة أن تعبده، والطريقة أن تقصده، والحقيقة أن تشهده!، أو تقول: الشريعة لإصلاح الظواهر، والطريقة لإصلاح الضمائر، والحقيقة لإصلاح السرائر.. الخ".

وبين الإمام أن هذا كلام مضطرب مدخول، يقوم على التلاعب بالألفاظ، والعبث بالمفاهيم، وليس في دين الله أهل شريعة وأهل حقيقة، ولم ينقسم الوحي الإلهي إلى فريق لهؤلاء، وفريق لأولئك! (٣).

وقد أنكر الإمام الجنيد على رجل ادعى أن أهل المعرفة بالله لهم أن يتركوا

---

(١) سورة الإنسان: آية رقم ٢٠ - ٢٢

(٢) (مائة سؤال) مرجع سابق، ص ٥١.

(٣) انظر "ركائز الإيمان بين العقل والقلب"، ص ١٢٢ ـ ١٢٥.

الحركات والأعمال المطلوبة شرعاً، من باب البر والتقوى إلى الله ـ تعالى ـ، ورد قائلاً: "إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال، وهذه عندي عظيمة، والذي يسرق ويزني أحسن حالاً من الذي يقول هذا، وإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله وإليه رجعوا فيها، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة، إلا أن يحال بي دونها، وإنه لأوْكد في معرفتي وأقوى في حالي"[1].

إن الجنيد يثبت أنه لا باطن بدون ظاهر، ولا حقيقة بدون شريعة، والزاني والسارق يعرف أنه عاصٍ، ويرجو التوبة والمغفرة من ربه، بخلاف المدعي الذي يزعم أنه قريب من الله، وأنه في أرفع المقامات وأحسن الأحوال، وبالتالي لا يحتاج إلى صلاة وصيام أو عمل صالح، وهذا مهلك له ومضيه له في دنياه وأخراه .

٦ـ القول بوحدة الوجود:

أنكر الإمام القول بوحدة الوجود، – التي صدرت عن بعض المتصوفين الذاهلين من الوجود المادي ـ، والتي تعني أن الموجود هو الموجود، والخلْق هو الخالق، ورأى أنها نفي للألوهية، وإثبات للكائنات وحدها، وهي عنوان آخر للإلحاد في وجود الله، وتعبير ملتوٍ للقول بوجود المادة فقط، إذ مادام لا يوجد شيء وراء هذا العالم، فالقول بأن الله داخله هو صورة أخرى للقول بنكرانه!.

وبين أن هذه الخرافة "وحدة الوجود"، تفكير هندي قديم، خلاصته أن هذا العالم أزلي أبدي، وأن الأرواح تخرج من أجسادها، لتعود في أجساد أخرى، وقد تكون أجساد حيوانات!، وقصة الحياة تدور في هذا النطاق المحصور، وتبدأ من حيث تنتهي،...، وهكذا دواليك إلى ما شاء الله، والله – في أوهامهم – هو هذه العمليات المتكررة![2].

٧ـ ادعاء خيرية الفقر ـ دائما ـ على الغنى:

إن الإمام – رحمه الله – رد على فكرة خاطئة، لدى جمهرة من المتصوفة وعدد من

(١) أبو عبد الرحمن السلمي، "طبقات الصوفية"،تحقيق: نور الدين شريبة،ط. القاهرة، ١٩٠٣م، ص ١٥٩ .
(٢) "ركائز الإيمان...."، ص ١٣٦ ـ ١٣٩.

المفسرين، تدعي أن الفقير الصابر خير من الغنيّ الشاكر، وأن قلة الشيء للمؤمن خير من كثرته!.

وادعوا أن حملة القرآن على الدنيا والمفتونين بها تعني فراغ اليد منها، والتشرد في أرجائها، وهذا جهل فاضح.

إن الإسلام يحتقر الدنيا التي يحتقرها كل رجل شريف؛ الدنيا التي تجئ ثمناً للتفريط والخيانة، وتُصطاد من مصادر مريبة ملوثة، وتحجب صاحبها عن الحق، وتقعد به عن الواجب.

أما حيث تنتفي هذه السيئات التي تجيء منها الدنيا، فإن الدنيا – عندئذ – ركن ركين في الدين، وتمام للمروءة، وقيام للحياة!.

وذكر الإمام أن أسلافنا الصالحين، بنوْا الحياة، وأعلوْ البناء، وأقاموا الدين، ومكنوا له.

إن القعود عن الدنيا جريمة، وحق أي امرئ في دنيا صائنة كحقه في جسد سليم الحواس، مكتمل الأعضاء، وكل كلام يصرف المسلمين عن التمكن من الدنيا، وتسخيرها للمكارم، والدين والعزة، هو سخف عقول معتلة، تسيء للدين والأمة! [1].

وقد بين الشيخ أن كثرة المال ووفرته تعين على إنجاح العقائد ومساندة أصحابها، والقلة ربما خذلت الحق وجرأت عليه .

ومن هنا يسعى أهل الإيمان والدعاة إلى دعم أنفسهم ومبادئهم بالمال الكثير، والتمكين في الأرض .

وما أكثر الأغنياء الشاكرين، وما أكثر الفقراء المستعفين؛ ما أكثر الذين ملكوا فخدموا وأعانوا، وما أكثر الذين حُرموا فتماسكوا وانتصبت قاماتهم وعاشوا كراماً [2] .

وتساءل الإمام: "ماذا يكسب الإسلام عندما يطلق المسلمون الدنيا ويتزوجها غيرهم؟، وكيف تسير الأمة إذا كان غنى عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف قيداً

(١) "ركائز الإيمان...."، ص ١٦٣، ١٦٤.

(٢) الشيخ الغزالي، "علل وأدوية، مرجع سابق ـ، ص ١٨١ ـ ١٨٢ .

رؤية الشيخ الغزالي للتصوف ودوره وواقعه ٢٣/ ٠٤/ ١٤٤٠

يؤيدهما، فلا يدخلان الجنة إلا زحفاً؟!، على حين تطير الصعلكة بأصحابها، فيسبقون إلى النعيم المقيم؟".

وذكر أن مراده من الكتابة في هذه القضية هو: "لإفهام المؤمنين أن الحياة في سبيل الله كالموت في سبيل الله، جهاد مبرور، وأن الفشل في كسب الدنيا يستتبع الفشل في نصرة الدين، وأن الواجد الذي ينزل عما عنده خير من المفلس الذي لا ينزل عن شيء، لأنه لا يملك أي شيء" (١).

وطالب بمراجعة الآثار، أسانيدها ومتونها وعناوينها، الآثار التي يُفهم منها حب الفقر والمسكنة، وبغض الغني والكسب، وأكد أهمية تقديم حقائق الإسلام جلية قوية، متوازنة كما أرادها الشارع الحكيم" (٢).

٨- الإيمان بالجبر، ونفى اختيار الإنسان وحريته:

فند الإمام فكرة، راجت لدى بعض الصوفية، وغيرهم، وهي الإيمان بالجبر تحت عنوان "الإيمان بالقدر"، هذه الفكرة المرفوضة ترى المؤمن بالمكتوب المقدَّر لا إرادة له ولا عزم، ولا هدف له ولا اتجاه، تراه متماوتاً، ينتظر من المصادفات صنع كل شيء له!.؟ كافراً بالأسباب والمسببات، أو منافقاً في الاعتراف بجدواها، فهو إذا باشرها فتنفيذاً للأمر الصادر، لا تصديقاً بالفائدة المنشودة.

هذه الفكرة الفاسدة أنكرها الإمام، مبيناً ضلالها، وأن المعروف من كتاب الله وسنة رسوله تقرير مبدأ المسئولية الشخصية، وتقرير حرية الإرادة الإنسانية، وأن الإنسان صانع مستقبله عند الله، ومستحق المثوبة أو العقوبة عدالة حقيقية، لا رواية تمثيلية!.

إن الكسالى المتعللين بالأقدار كذبة، إنهم لما آثروا الإخلاد إلى الأرض وشقت عليهم تكاليف التسامي والطاعة دافعوا عن أنفسهم، بالتملص من تبعة كسبهم،

(١)المرجع السابق ، ص ١٨٣ .

(٢) "علل وأدوية"، ص ١٨١، ١٨٢ .

وعملهم، وهيهات! [١].

إن الإسلام - كما عبر عنه القرآن - اقتحام عقبة، وتواصٍ بالحق والصبر، فكيف يتجاوب معه امرؤ يرى أنه لا قدرة له ولا إرادة!، وأن الفقر والغنى حظوظ، والسقوط والنجاح حظوظ، وكذا النار والجنة، والسعي والجهد لا طائل تحته!! [٢].

وذكر الإمام أنه لو كان متصوفة اليوم راشدين، لجعلوا الاستماتة في العمل والكفاح، رد فعل من جانبهم لبلادة العوام، كما جعل أجدادهم الزهد رد فعل لترف الحكام وحواشيهم، إن أمتنا بحاجة إلى جهاد في الداخل والخارج، إلى جهاد نفسي- واجتماعي، وعسكري، يستفرغ الطاقات، ويستنفد الأعمار! [٣].

وبين أن عقيدة الجبر، "تطويح بالوحي كله، وتزييف للنشاط الإنساني، من بدء الخلق إلى قيام الساعة، بل هي تكذيب لله والمرسلين قاطبة" [٤].

ويقول: (كل ميل بعقيدة القدر إلى الجبر فهو تخريب متعمد لدين الله ودنيا الناس). وذكر أن البعض من الكاتبين يهونون من الإرادة البشرية، ومن أثرها في حاضر المرء ومستقبله، مدعين أن البشر محكومون بعلم سابق لا فكاك منه، ومسوقون إلى مصير لا دخل لهم فيه، مهما بذلوا من جهد!.

هذا الادعاء رد عليه الإمام بآيات كثيرة تثبت ربط الجزاء بالعمل، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [٥]

وقد وصف الله جزاء الكذبة والمكذبين، وبين عقبى عملهم، فقال: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [٦]

---

(١) المرجع السابق، ص١٦٤.

(٢) "ركائز الإيمان...."، ص ١٦٥ ـ ١٦٧.

(٣) المرجع السابق، ص ١٦٨.

(٤) الشيخ محمد الغزالي، السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، ط. دار الشروق، د/ ن، ص١٧٣.

(٥) سورة الروم: آية رقم ٤٤.

(٦) سورة فصلت: آية رقم ٢٧ - ٢٨.

وعلق الإمام على الآيات بقوله: هل هذا الربط المتكرر بين العمل والجزاء؟ وهل هذه النقمة المحسوسة على المجرمين تومئ من قرب أو بعد إلى أن القوم كانوا أهل خير، فلوى زمامهم قدر سابق، أو كتاب ما حق؟!، ما أقبح هذا الفهم!"[1].

إن القرآن قاطع في أن أعمال الكافرين هي التي أردتهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٧﴾[2] . وقاطع في أن أعمال الصالحين هي التي نجت بهم: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٤٣﴾[3]

وقد تناول الإمام عدة آيات قرآنية، وأحاديث نبوية، يفهم منها البعض - خطأً - أن الإنسان مجبور على كل أعماله، لا إرادة له ولا حرية، ولا مسؤولية عليه، وقد بين الإمام الفهم السديد للآيات والأحاديث[4]، وأوضح أن هذه الآيات والأحاديث علاج للقلق للقلق والتشاؤم، وليست ذريعة كسل أو خمول[5] .

ونقل الإمام كلاماً مقنعاً لجلال الدين الرومي في هذه المسألة، فذكر قوله: " لو كان الجبر حقاً، لما توجه الأمر والنهي إلى الإنسان، وما كلف الإنسان بالشرائع والحكام، فهل سمع إنسان يأمر حجراً وينهاه؟!....، إن القرآن كله أمر ونهى، ووعد ووعيد، ولم نسمع عاقلاً يأمر الرخام أو ينهى الحديد!"[6].

وبين الإمام أن دائرة الاستكانة والتسليم تبدأ بما يغلب الإرادة المعتادة، وبما يخرج عن نطاق الاختيار الحر .

"إنه لا احتجاج بقدر، ولا مكان للقول به حيث تستطيع أن تفعل وأن تترك. أما

---

(١)المرجع السابق،ص١٧٦، ١٧٧.

(٢) سورة التحريم: آية رقم ٧ .

(٣) سورة الأعراف: آية رقم ٤٣ .

(٤) انظر "السنة النبوية، بين أهل الفقه وأهل الحديث"، ص١٨٣، ١٧٤، ١٧٥ وكتاب "عقيدة المسلم" ص١٦، ١٧. ١٧.

(٥) "جدد حياتك"، مرجع سابق، ص ٧٠ .

(٦) الشيخ الغزالي " دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين"، ط٧، نهضة مصر، ٢٠٠٥م، ص٨٨،٨٧.

رؤية الشيخ الغزالي للتصوف ودوره وواقعه ٢٣/ ٠٤/ ١٤٤٠

بعد أن تبلغ بإرادتك مداها فدع الأمور لمدبرها الأعلى، ينتهي بها حيث يشاء، دون نزق أو قلق". إن من الخطورة الخلط بين دائرتين متميزتين كل التميز، منفصلتين أتم الانفصال؛ دائرة "ما منه بُد"، و"ما ليس منه بُد"، ثم التسوية بين المسالك والمشاعر التي تجيش تلقاء كل مهما، والحق أن كلا من الدائرتين لها مجالها وإيحاؤها، فالرجل إذا وقعت به مظلمة يملك ردها، ويقدر على إيقافها، فإن صبره عليها وعدم دفعها جريمة، ورضاه بها معصية . أما إذا حلت به مظلمة يعجز عن دفعها، أو أصابته كارثة لا يستطيع التخلص منها فما عليه إلا أن يتحمل ويصبر [1] .

إن مراقبة الأقدار القاهرة ـ خارج نطاق إرادتنا الحرة ـ وملاحظة صنع الله فيما تفد به من حلو ومر، وخير وشر، يضبط العواطف، ويجنبها الحدة والغلواء .

إن المؤمن بقدر الله يلوذ بالاعتدال في فرحه وحزنه، وسروره ونفوره، ويسيطر على أعصابه، ويثبت في وجه العواصف القاسية، ولا تتشتت أفكاره، ولا يسترسل مع أحزانه وكآبته.

- إن المرونة في مقابلة الشدائد بعض آثار الإيمان والرشد، وهذه المرونة دلالة تأدب مع الله، وسكينة في ملاقاة قدره .

وهذه المرونة في ملاقاة الواقع البغيض قد تكلف الإنسان الابتسام له وحمل النفس على حسن استقباله، لا لأن الإنسان يود بقاء هذا الواقع، بل تخفيفاً من شدة الضيق به .

إن "الرضا بالقسمة" قد فهمه البعض على غير وجهه الصحيح، فسوغ به الفقر والكسل والخمول، بدل أن يهونوا به كبوات السعي الجاد، وهزائم العاملين المرهقين، ومتاعب المظلومين في وظائفهم، وهم لا يستطيعون حيلة! [2] .

٩ـ ادعاء أن العمل الصالح لا لزوم له لدخول الجنة:

بين الإمام أن حديث النبي - ﷺ - بشأن نفي إدخال العمل الصالح صاحبه

(١) الشيخ محمد الغزالي، "جدد حياتك" مرجع سابق، ص ٧٠ ـ ٧٢ .

(٢)(جدد حياتك) مرجع سابق، ص ٧٣ ـ ٧٦ .

الجنة، وهو «لن يدخل أحكم الجنة بعمله[1] »، هذا الحديث ليس نفياً لقيمة العمل، بل نهي عن الاغترار بالعمل، إنه نهيٌ عن الاطمئنان إلى العمل، والاستكبار به، والجراءة على الله، بعد إتمامه.

إنه ليس نهياً عن التزود بالصالحات، والاستكثار منها.

ومن الغرابة أن يفهم عوام المسلمين من الحديث الشريف أن العمل لا لزوم له!

إن الحديث الشريف نفي لأن يكون العمل ثمناً حقيقياً للجنة، وليس نفياً لأن يكون سبباً حقيقياً لدخولها.

إن الخلود الدائم في نعيم مقيم ليس الثمن الكافي لعبادة الله سنين عدداً، ذاك الخلود لو خلت العبادة من شوائب الرفض، فكيف وأكثرنا لو فَحِص عملُه لَرُدَّ في وجهه!، ثم كيف لو حوسب الإنسان على النِعم المغدقة عليه في الدنيا، وقيل له: عملك نظير بعض هذه النعم!

إن الحديث ليس مناقضاً للآيات والأحاديث الأخرى، المثبتة أن العمل لابد منه لدخول الجنة، وأنه سبب شرعي مطلوب، لا يُستثنى منه بشر، ولا يدخل بدونه أحد، وحديث «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله»، إنما هو كسر للغرور البشري، وتذكير برحمة الله وتجاوزه وصفحه [2].

وقد جاء في " فتح الباري" أن المنفي في حديث: " لن يدخل أحدكم الجنة بعمله" هو دخولها بالعمل المجرد عن القبول!، إنما يحصل برحمة الله، فلم يحصل الدخول إلا برحمة الله [3].

١٠- تضييع الفرائض لحساب نوافل!:

بشأن الأوراد الشائعة بين جماهير المسلمين قرر الإمام أنه لا حقَّ لبشر ما في إنشاء عبادة، أو استحداث نسك، وإذا وقع أن امرءاً تطوع بقراءة أذكار معينة، واستحب

(١) صحيح البخاري: كتاب الرقائق، باب القصد والمداومة على العمل –حديث رقم :٦١٠٩.

(٢) "ركائز الإيمان......"، ص ١٢٢ ـ ١٢٥، وص ١٣٧.

(٣) انظر "فتح الباري" شرح صحيح البخاري، ج١١، ص٤٨٨.

المواظبة عليها فليس له إلزام غيره بقراءة هذه الأذكار.

والحكم بأن هذا مفْروض وذاك مندوب حق للشارع وحده، لا يشاركه فيه بشر!.

والفرائض لابد من أدائها كاملة، أما النافلة فتؤدى بعد إتمام وإكمال الواجبات، وهناك أذكار مأثورة، تُقال في الصباح أو المساء، وقد أحصت كتب السنة جملاً رقيقة منها، وبينت متى تُقال، وثواب القائل.

وهي كلمات واضحة، لا يستغرق ترادها دقائق قليلة! [1].

إن إمامنا الغزالي كانت له أوراد من المأثور عن صاحب الشريعة- ﷺ-، ينشط لها حيناً، فإذا اشتغل بالتأليف أو العمل العام تركها -مع حبه لها-.

وقد رأى ذلك الموقف، لأن الشرع أوجب أداء الفرائض كاملةً، أولاً، أما النافلة فإنها تؤدى عند توفر الوقت وإقبال النفس.

وبين أن الاشتغال بالتجارة والجهاد عبادة، كإقام الصلاة، وتلاوة القرآن، وقد وردت أذكار مأثورة صحيحة كثيرة، تقال، ويرددها المسلم، لا تستغرق دقائق تعد على أصابع اليد، ولا تشغل عن تجارة ولا جهاد، ويجب ألا تشغل عن القرآن الكريم.

وذكر الإمام نماذج لمن يضيّع الفريضة، لاهتمامه بأداء النافلة، منها: المدرس الذي تشغله ركعتا الفجر عن الإسهام في التفوق العلمي والاقتصادي، للأمة الإسلامية، إذ يكفيه أداء فريضة الصبح، ثم يستغرق في أداء الفرائض التي تحتاجها الأمة!.

إن المسلم الذي يشغل نفسه بورد يأخذ وقتاً منه على حساب الفرائض، هذا مردود عليه![2].

وقد نبه عمرو بن عثمان المكي [3]، في تعريفه التصوف بأنه " أن يكون العبد في كل

---

(١) "ركائز الإيمان...."، ص ١٨٤، ١٨٥.

(٢) المرجع السابق، ص ١٨٥

(٣) هو العارف بالله، البصير، الزاهد، شيخ الحرم، يكنى أبا عبد الله، سكن بغداد، له كلام حكيم ومواقف مليئة بالنبل والفقه، توفي ببغداد عام٢٦٩ه، انظر "صفة الصفوة"، ج٢، ص ٤٤٠، ٤٤١، و"حلية الأولياء"، ج ١، ص ٢٩١، ٢٩٢ .

وقت مشتغلاً بما هو أولى في الوقت [1]"أي رعاية ما يطلق عليه "واجب الوقت"، ان وجوه البر، وأعمال الخير وشعب الإيمان كثيرة متعددة، لذا على المرء المسلم أن يشتغل منها بما هو الأنسب لحاله، والمطلوب في أوانه، والأولى بصرف الجهد والوقت في حينه.

وإذا لم يحكم المسلم- والمتصوف خاصة- هذا الفهم الواعي للأولويات، حار بين وجوه البر، والخير، وربما شغله الأدنى عن الأعلى، والمهم عن الأهم، وما يمكن تأجيله عما ينبغي تعجيله [2].

- وقد ذكر الإمام معرفته لموظف كبير يُظهر حب آل البيت، ويمسك السبحة بيده، ليُحصي عليها ما يردد من أسماء وصلوات، ويؤدي الفروض المكتوبة، لا يقصر في أدائها.

لكن هذا الموظف لما لم تذكر الصحف اسمه في مجموعة المتحدثين في حفل، ثار وكاد يُجَنُّ، لما فاته من أسباب الرياء - كما ذكر الإمام -،وتبيَّن أن تدينه لم يستكمل عناصر الإيمان الحق، ولم يحسن فطام نفسه من أخبث عللها، وهي الرياء، الذي حاول مداراته بتلاوة أذكار أو صلوات على الرسول- ﷺ- [3].

وذكر الإمام أنه عاهد نفسه على تغيير المصطلحات غير المناسبة في مجال التصوف، فمثلاً، تعبير "مجذوب"، يراه سخيفاً، والأفضل منه مصطلح "مستغرق"، وبعض الناس ينشغل بجلال الألوهية، والنظر في عظمة الكون، وينتقل منها توًّا إلى عظمة المكوِّن، والشعور بأن العبد تافه وضعيف أمام هذا الجلال والعظمة، هذا استغراق، ولم يستسغ الإمام أن يقول عن هذا الإنسان الذي عاش هذه المعاني الطيبة، إنه مجذوب! [4].

١١- توسل فاسد:

(١) أبو نصر السراج الطوسي، "اللمع"، تحقيق وتقديم" د/ عبد الحليم محمود، وطه عبد الباقي سرور، ط. القاهرة، ١٩٦٠م، ص ٤٥ .

(٢) "في التصوف الإسلامي"، مرجع سابق ص ٢٥.

(٣) "الجانب العاطفي..."، ص ١٠.

(٤) "حوارات الشيخ الغزالي، السيرة والمسيرة"، ص ٨٦.

ذكر الإمام أن رجلاً طيباً قال له - في استحياء ولوم -: سمعت أنك هاجمت الإمام الحسين، وزوار ضريحه، ووصفته بما لا يليق، ووصفت قاصدي قبره بكلمات رديئة، لما كنت تشرح عقيدة التوحيد!.

فكان رد الإمام: "أما أني هاجمت الحسين، فو الله إني أحب الحسين وأباه وجده، ووددتُ لو كان لي شرف الموت في كربلاء أو صفين، أو إحدى الغزوات!.

وما خطر ببالي يوماً أن أسيء إلى رجل أو امرأة من آل البيت، وإني لأرى حبهم ديناً، وكرهم فسقاً .

وأما أني تحدثت في عقيدة التوحيد، فنعم.

- ومن الرسول وآل بيته تعلمنا هذا الحديث، وقد قلتُ فعلاً: إن الذي يدع الله رب العالمين، ويتجه إلى شيء من الأشياء، أو شخص من الأشخاص، يَطلب منه ما لا يُطلب إلا من الله، فهو ضال.

- وقد كنتُ في كلامي أهاجم الوثنية، ولا أطعن في أحد، وما خطر ببالي قط أمر الإمام الحسين".

وجرى حوار مع الرجل، الذي سأله: لقد كنتَ تخطب في الجامع الأزهر، وهو قريب من مسجد الحسين، فليس عجيباً أن يكون كلامك اعتراضاً على رواده، ولماذا تقول كلاماً يفيد ترك الوسيلة؟![1] .

فكان جواب الإمام: "إذا أقبل أحد على الله بقلبه، وشرع يوجه العبادة إليه وحده، ضاقت بذلك أفئدتكم، وتصيدتم له التهم، وطلبتم منه العبث!".

وتابع: "كيف تجيء إلى إنسان تعلقت بالله مشاعره، وارتبط به خوفه ورجاؤه لتقول له: اعرِف فلاناً، توسلْ بفلان؟، كيف تجيء إلى قلب فرغ من المخلوقين إلى الخالق، وخلص من العبيد إلى السيد لتقول له: اقسم مشاعرك بين الله وفلان؟!".

ثم قال الإمام: "يا الله، هل حديث التوحيد يجعل صاحبه ظنيناً، ويعرِّضه للقيل

(١) "ركائز الإيمان...."، ص ٢٨٣.

رؤية الشيخ الغزالي للتصوف ودوره وواقعه ٢٣/ ٠٤/ ١٤٤٠

والقال؟!"[1].

- واتهم الرجل الإمامَ بأنه ينكر كرامات الأولياء ومكانتهم عند الله، فكان رد الإمام: "وما علاقة هذا كله بتوحيد الله وإفراده بالدعاء؟، إن للصالحين عند الله مكانة تخلدهم في نعيمه المقيم، ورضوانه العميم، وقد بلغوا هذه المكانة بصدق العبودية، وإبداء الذل، والاستكانة في الحضرة الإلهية، ونحن مكلفون أن نصنع مثلهم، أو نقترب من شأوهم إن لم نبلغهُ؟" .

١٢- فهم خاطئ لبعض الأحاديث:

كانت رؤية الإمام امتناع المسارعة إلى تكذيب حديث ما، لأن ظاهره - لأول وهلة - يخالف المعروف من الدين.

لكن الأمر يحتاج إلى الفقه والتدبر لنحسن فهم الأحاديث.

- وضرب المثال على ذلك بحديث روي عن أبي الدرداء- رضي الله عنه-، قال فيه رسول الله- صلى الله عليه وسلم- «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم، فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟، قال: بلى، قال النبي: ذكر الله» [2].

فهذا الحديث - وأمثاله - يفهم منه البعض أن الذكر المجرد آثر عند الله، وأدنى إلى إرضائه من أي عمل آخر، وربما حسبوا أن درجة الإحسان لا تُنال إلا بطول الذكر، سواء في الصوامع المعزولة، أو المجالس الحافلة، فكان الاستكثار من الأوراد، وأنواع التلاوات.

وهذا فهم خاطئ، فمن الذي قال: إن المجاهدين في سبيل الله طائفة أخرى تقابل

(١) "المرجع السابق"، ص ٢٨٣.

(٢) المستدرك على الصحيحين للحاكم ،ط١،دار الكتب العلمية_بيروت،١٩٩٠،تحقيق مصطفي عبدالقادر عطا ،أول كتاب المناسك، كتاب الدعاء والتكبير، حديث رقم١٨٢٥ ،وقال :حديث صحيح الاسناد ،ولم يخرجاه،ج١ ،ص٦٧٣،

الذاكرين لله، وتوضع في كفة مغايرة، ويقال: هذه أرجح من تلك؟!! [1].

– وأوضح الإمام أن "الجهاد في سبيل الله أرفع درجات الذكر، والمجاهد في سبيل الله رجل يعرف ربه، ويريد أن يغرس هذه المعرفة في الحياة وأن يرويها بدمه حتى تزدهر وتنمو.

– المجاهد في سبيل الله رجل يذكِّر الآخرين بالله، بعد أن امتلأ هو بهذا الذكر من أخمص قدميه إلى ذؤابة رأسه".

إن المجاهد قد ذكر ربه عند التقاء الجمعين، وصاحبه هذا الذكر في أدوار المعارك كلها، وفي كل أحوالها. والمجاهد يعد من المحسنين، وجهاده الصبور المحتسب هو الإحسان.

وتابع الإمام: "من قال: إن الإنفاق في سبيل الله ليس ذكراً لله!، إنه ذكر عملي، له مكانته. وهو أشرف من ذكر اللسان، ولو واطأه صحو القلب"[2].

إن المنفق ذكر ربه وأحكامه، عند جمعه المال وكسبه، وعند إنفاقه، وبذله في وجوه البر، فهو في طليعة الذاكرين.

إن الحديث الشريف المذكور يستهدف تزكية النفس بذكر الله وطلب ما عنده، ويرى النية الطاهرة أرجح من العمل الكدر، وهذا معنى حق، فإن الآفات التي تسطو على العمال الصالحة تُذهِب قيمتها عند الله، وتمحق ثمرتها في المجتمع.

– لذا فإن المعنى الوحيد الصحيح للحديث المذكور أن الذكر المجرد أفضل من الجهاد المشوب بحب الغنيمة، وطلب الشهرة، وكذلك أفضل من الإنفاق المصحوب بالرياء والمن!.

ويطالب الإمام المرء المسلم بأن لا يترك الذكر ولو كان قلبه مشغولاً، فإن إصراره على الذكر سوف يترقى به إلى أعلى المراتب [3].

---

(١) "الجانب العاطفي..."، مرجع سابق ص ٧٠ـ ٧١.

(٣) المرجع السابق ،ص ٧٠ـ ٧١.

(٣) "الجانب العاطفي....."، ص ٧٠ـ ٧٢.

وقد أورد الإمام حديثاً شريفاً بين أن الذكر يقارن الأعمال، لا ينفصل عنها، بل يلابسها، لتصح وتُقبَل [1]، فقد روي عن معاذ بن جبل - ﷺ -«أن رجلاً سأل النبي - ﷺ - فقال: أي المجاهدين أعظم أجراً؟ قال: أكثرهم لله تبارك وتعالى ذكراً. قال الرجل: فأي الصالحين أعظم أجراً؟، قال النبي: أكثرهم لله - تبارك وتعالى - ذكراً.

ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة، كل ذلك ورسول الله يقول: أكثرهم لله - تبارك وتعالى - ذكراً. فقال أبو بكر لعمر: يا أبا حفص، ذهب الذاكرون بكل خير!، فقال الرسول: أجل» [2].

وقد أحسن الإمام في قوله: "إن الذكر ليس صياح فم، وإنما هو خشوع قلب، واستكانة عبد إلى سيده، وعمل له دون منٍّ أو خيلاء" [3].

وبين أن الذكر يخالط كل شئون الحياة، بدءاً من عمل الفلاح في حقله، إلى عمل الحاكم في ديوانه، وضرب مثلاً على ذكر الحاكم لربه، بما صنعه عمر بن الخطاب، عندما خطب الناس يومًا، فذكر لهم تفاهة حرفته صدر حياته، وكيف كان أجيراً لا يؤبه له، فلما نزل من المنبر قال له عبد الرحمن بن عوف: ما زدت على أن هجوتَ نفسك!، فقال عمر: ذاك ما قصدتُ، إن نفسي تطاولت، فأحببت أن أقمعها!.

ويعلق الإمام على ذلك بقوله: "هذا حاكم يفهم بعمق معنى قوله سبحانه: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [4]. إنه سياسي كبير، يحمل فؤاد عابد كسير، إنه لن يتفرعن يوماً، وهو يحمل بين حناياه هذا القلب!"[5].

١٣- العزلة الفاسدة:

(١) "المرجع السابق"، ص ٧٥.

(٢) المعجم الكبير للطبراني - بقية الميم، رواية أهل الكوفة - معاذ بن أنس الجهني، حديث رقم:١٧٢١٦، وضعفه الألباني، انظر: (ضعيف الترغيب والترهيب)، الألباني، برقم ٨١٠ .

(٣) "مائة سؤال...."، ص ٣١٩.

(٤) سورة القصص: آية رقم ٨٣.

(٥) "مائة سؤال ..."، مرجع سابق، ص ٣٢٠.

رؤية الشيخ الغزالي للتصوف ودوره وواقعه ٢٣/ ٠٤/ ١٤٤٠

وبشأن العزلة والاختلاط بين الإمام أن رسل الله وأنبياءه -عليهم الصلاة والسلام-، ومن اهتدى بهديهم - عاركوا الشر، وعالجوا أسبابه، وتحملوا بجلادة ما تركه هذا العراك في أنفسهم وأهليهم من أحزان وكروب، ولم يكن هناك بُد من هذا المسلك.

ولا طريق لنصرة الحق وغلبة الخير إلا بالجهاد المضنيِ، لجعل عادة حسنة تغلب رديئة، وتقليد صالح يغلب تقليداً فاسداً، وتيار نقي يحل مكان تيار ملوث!.

والثواب العظيم المرصد لخطوات المجاهدين يرجع إلى عظم آثارهم في الحياة وامتداد النفع بكفاحهم المادي والأدبي.

إن الانكماش عن الحياة العامة ليس شارة صلاح، ولا طريق إصلاح، بل قد يكون دليل ضعف وانهزام، أو نشداناً للراحة، مع ترك الدنيا تموج بما هي فيه.

وما سبق من معان، لا يُلغي حاجة المرء - في فترات مختلفة - إلى أن يخلو بنفسه، نائياً عن الناس، يراجع نفسه في صمت العزلة، متفكراً في إحسانه وإساءته، وما له وما عليه... الخ، وليستعيد في خلوته حدة بصيرته، وتألق ذهنه، وتجديد وعيه، وهذه المراجعة ساعات غالية، لهذه المقاصد الضرورية.

وقد سنت الشريعة الاعتكاف في المسجد، خاصة في العشر الأواخر من رمضان، تفرغاً لطاعة الله، والإقبال عليه، وهو - في حقيقته- ـواحات روحية مزهرة، على درب الحياة الشاق الطويل [1].

(١) "ركائز الإيمان...."، ص ١٨٦ ـ ١٩٢.

رؤية الشيخ الغزالي للتصوف ودوره وواقعه ٢٣/ ٠٤/ ١٤٤٠

المبحث الرابع:

بعنوان :
التصوف الصحيح ،
أو الطريق الى الله ،
مراحله عند الشيخ

"الطريق إلى الله" تعبير لطيف عن جهود المسلم في تصفية نفسه، وترضية ربه، والتحول عن أحوال ومواطن الغفلة والركود، إلى مواطن وأحوال الذكر والحركة.

ومراحل الطريق تتمثل فيما يحرزه المرء من نجاح، وهو يتخلص من خَلة رديئة، أو مسلك عابث، ويتحلى بخلق كريم، وسيرة جادة.

إن الطريق سير في ميادين النفوس، وجهته الله، وعدته صالح الأخلاق والأعمال، مع قوة الرجاء في التوفيق والإمداد الإلهي الذي يسدد الخُطا، ويبارك في القليل.

وأول مراحل الطريق -كما ذكر -هي:

١ـ التوبـة إلـى الله:

إن أول مراحل الطريق هو التوبة، وهي القرين المتنقل في مدارجه من البداية إلى النهاية.

وقد بين الإمام أن التوبة تحتاج إلى جهد كبير، لابد أن يقوم به كل مسلم بنفسه، وعليه المسارعة إلى ربه، متعهداً نفسه بالرعاية والتأديب، مقبلاً على شأنه بالترتيب والتهذيب، ليستطيع النجاة مما وقع فيه.

ويتساءل: "ألا تستحق نفسك أن تتعهد شئونها بين الحين والحين، لترى ما عراها من اضطراب فتزيله، وما لحقها من إثم، فتنفيه عنها، مثلما تُنفى القمامة من الساحات الطهور؟". وطالب الإمام بأهمية محاسبة النفس وتنظيمها وإحكام الرقابة عليها، حتى تُجدد النفس، ويعاد بناؤها على أشعة من الأمل والتوفيق واليقظة [1].

- وأكد على حاجة أهل الطاعة إلى التوبة، كما يحتاج إليها أهل الذنوب، والمطيعون يحتاجونها من عدة جهات:

أ - من الخلل الواقع في الطاعات نفسها، حيث تحتوي على عيوب ونقص وغفلة وسهو - غالباً -، ومن الممكن رفض هذه القربات بتهمة ثابتة، هي: سوء الأدب

(١) "ركائز الإيمان....."، ص ١٥٥ ـ ١٦٠.

رؤية الشيخ الغزالي للتصوف ودوره وواقعه ٢٣/ ٠٤/ ١٤٤٠

ورداءة جودتها، والتقدم بها بين يدي الله الكبير الجليل العظيم – سبحانه – [1].

من أجل ذلك التقصير المستمر شرع الاستغفار في أعقاب الصلوات، ثلاث مرات.

ب – التوبة من ظن العبد أن طاعاته هي منتهى حق الله عليه، وأنه بأدائها قد فرغت ذمته، ودفع ثمن نعمه –تعالى–، وثمن جنته.

وبقي على الله أن يبعث ملائكته، لتسلم المغرور مفاتيح الجنة التي استحقها بعمله!.

جـ – إن صنوف العبادات المطلوبة من المؤمنين كثيرة.

وهناك من العابدين من يستكثر من عبادة ما، على حين كان يجب عليه التوسع في غيرها وتوجيه فضول نشاطه إليها.

مثال ذلك الغني الذي يستكثر من الصلوات، ويقتصد في الصدقات والنفقات، فهذا ينبغي عليه التوبة من هذا المسلك!.

وكذا العالم الذي يصوم الاثنين والخميس، ويلوذ بالصمت أو بالإيجاز في مواطن الزجر والنصح، هذا يجب عليه التوبة من هذا الفعل القبيح!.

إن بعض الناس يؤثر عبادة على أخرى، لأنها أدنى إلى هواه، وأقرب إلى السلامة، والدين أحكم في تعاليمه، وأدق في موازينه مما يتوهم هؤلاء.

د – إن حراسة الطاعة بعد أدائها من شتى الآفات ضرورة، كحراسة الزرع من الديدان، والأمراض التي تجتاحه، لذا كان الرجل الذي يعطي ثم يمتن، أو يطلب بعطائه الصدارة بين الناس، رجل يحبط عمله، ويضيع أجره!.

كل هذه المعاني الكبيرة وضعها الإمام تحت عنوان: "مدارج التوبة" [2].

وبين أن الله – تعالى – خلق الإنسان، ليكرمه، لا ليهينه، وليسوّده في العالمين، لا ليؤخر منزلته، أو يضع مقداره، ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا

(١) المرجع السابق ص ١٧٠.

(٢) "ركائز الإيمان...."، ص ١٧٠، ١٧١.

تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ (١)

ووظيفة الدين بين الناس ضبط مسالكهم وعلائقهم على أساس من الحق والقسط، حتى يحيوْا في الدنيا، حياة، لا جور فيها ولا جهل، ولا قسوة.

لذا أمر الله بالتوبة، التي يجب أن تكون نقلة كاملة من حياة إلى حياة، وفاصلاً قائماً بين عهدين متمايزين، كما يفصل الصبح بين الظلام والضياء (٢).

وينبغي امتلاء التوبة بصدق العزم، وقوة التحمل، وطول الجلَد، إذ هي انتصار الإنسان على أسباب الضعف والخمول، وسحقه لجراثيم الوضاعة والمعصية، وانطلاقه من قيود الهوى والجحود، ثم استقراره في مرحلة أخرى، من الإيمان والإحسان، والنضج والاهتداء.

إنها حياة تجددت بعد بِلى، ونقلة حاسمة غيرت معالم النفس، كما تتغير الأرض الموات، بعد مقادير هائلة من المياه والمخصبات.

وصدق في قوله: "إن البعد عن الله لن يثمر إلا علقماً، ومواهب الذكاء والقوة، والجمال، والمعرفة، تتحول كلها إلى نقم ومصائب، عندما تعرى عن توفيق الله، وتحرم من بركته".

وبشأن سؤال: هل الأفضل والأصوب للتائب أن ينسى ذنوبه، أم ينصبها بين عينيه، لا ينساها؟ .

رأى الإمام أنه يختار ما هو أصلح لدعم التوبة وهجر الآثام، وإلف الطاعات، والفضائل، فإن كان استصحاب الماضي من الذنوب يحرس الإنسان من الانزلاق، ويقيه العودة إلى مساخط الله، فيجب عندئذ استصحاب ذلك الماضي!.

إن هذا الاستصحاب يشبه التجربة التي تفيد صاحبها دُربة على السير، وقدرة على تخطي العوائق.

---

(١) سورة الأعراف: آية رقم ١٠ – ١١ .

(٢) المرجع السابق ص١١٤.

رؤية الشيخ الغزالي للتصوف ودوره وواقعه ٢٣/ ٠٤/ ١٤٤٠

أما عند كراهة التائب استعادة صور ذنوبه وآثامه الماضيات، لأنه يشعر بأنه استأنف عهداً حافلاً بثمار الخير، ويرى أن نقل الماضي للحاضر يعكر صفوه ويشل مسيرته، هنا يجب عليه نسيان ما كان، والإقبال على حاضره وحده، لينميه ويطيبه ويقويه [1].

٢ـ الـورع:

- إن ترك المعاصي واجب على المسلم يقيناً، ومطلوب منه - أيضاً - ترك ما يقرب منها، حذراً من الوقوع فيها، وهذه الحيطة يقوم بها المسلم حجاباً بينه وبين الرذيلة التي يكرهها، حتى يأمن الانزلاق إليها، ويتحصن من أسباب الإغراء التي تكثر قريباً منها.

وهذا المعنى الرائع نتعلمه من حديث النبي -ﷺ- «**الحلال بين، والحرام بين، وبينهما متشابهات، لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات كراع حول الحمى، يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا إن حمى الله في أرضه محارمه**» [2].

إن الكيّس من يباعد بينه وبين المحرمات التي نهى الله عنها، ضناً بشرفه عن التلوث، وسيرته عن الاعوجاج.

إن ما يتصل بالشر والخير، والجمال والقبح، وما يرضي اللهَ وما يسخطه، من مقتضى الحزم أن يحصن المرء نفسه بمزيدٍ من الحيطة، فيترك شيئاً من الحلال القريب من الحرام، كراهية للحرام، وما يتصل به [3]، لذا جعل النبي من صفات المتقين، هذه الحيطة التقية، فقال: «لا يبلغ العبد أن يكون في المتقين حتى يدع ما لا بأس به، حذراً لما به

(١) "ركائز الإيمان...."، ص ١٦١ ـ ١٦٦.

(٢) صحيح البخاري - كتاب البيوع، باب: الحلال بين - حديث: ١٩٦١، وصحيح مسلم - كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات - حديث: ٣٠٨١.

(٣) "ركائز الإيمان...."، ص ١٧٧، ١٧٨.

بأس»[1].

إن المتقين واقفون عند حدود الله هيابون أن يلموا بشيء يسقط مروءتهم، ويغضب عليهم مولاهم، وإن الرجل الذي يرى في الله عوضاً عن كل فائت، ينظر إلى عرض الدنيا وشئون الأقربين والأبعدين نظرة خاصة، نظرة من يحكم عليها من أعلى، لا من تتحكم فيه وهو دونها أو وراءها![2].

٣ـ العفــة والقناعــة:

قد بين الإمام أهمية العفة والقناعة لدى كل مسلم، والعفة تعني قدرة الواجد على ضبط نفسه، وحكم إرادته.

وهذا العفاف لا ينافي الإثراء من وجوه الخير، والقناعة لا تنافي السعي إلى حالة أفضل، وقادة الفكر الإسلامي مسئولون عن أمرين:

أولهما: تعزيز عقيدة الإيمان بالله واليوم الآخر، وتذكير الإنسانية بمصيرها الخالد، بعد رحيلها عن أرجاء هذه الأرض.

ثانيهما: البراعة في هذه الحياة، وإحراز قصب السبق في علوم الأرض، وتوجيه القوى المادية المختلفة – بعد فقهها وإجادتها – إلى خدمة المثل العليا للإيمان الصحيح. مع التصدي لمن يجهلنا في الحياة، باسم الزهد فيها، ومن يصرفنا عن العمل لها، بزعم أن ذلك صارف عن عمل الآخرة!.

هذا التزهيد الضار في الدنيا هو أخصر الطرق لخسارة الآخرة، وضياع الحقيقة، وسيطرة الضلال، وانتشار الإثم. والعجز في ساحات الدنيا، من أسباب الانهيار العام، الذي استغله خصومنا في النيل منا، والسيطرة علينا.

وبين أن الإسلام يحتقر الدنيا أشد الاحتقار، عندما تكون الأمل الذي لا أمل معه،

---

(١) "سنن ابن ماجه"، – كتاب الزهد: باب الورع والتقوى – حديث رقم:٤٢١٣، وسنن الترمذي، الجامع الصحيح، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ – حديث رقم:٢٤٣٣، وضعفه الألباني، انظر: ضعيف السنن: حديث ،رقم:٤٢٩٠، ٢٤٥١ .

(٢) "ركائز الإيمان....."، ص ١٧٩، ١٨٠.

وعندما يكون الهدف الوحيد هو الاستكثار منها ونسيان الآخرة وحساب الله وجزائه.

إن الدنيا إذا لم تكن وسيلةً للآخرة، وإذا لم تصنع منها جسراً تعبر منه إلى رضوان الله، فلا خير منها!.

وعلى المسلم أن يطلب الدنيا من الحلال، وأن يعف عن الحرام [1]، ولا يضحي في سبيلها بمروءته، أو يفقد شيئاً من دينه، فالرسول - عليه الصلاة والسلام - يقول: «لأن يأخذ تراباً، فيجعله في فيه خير له من أن يجعل في فيه ما حرم الله عليه» [2].

ومما يعين المسلم على العفة والقناعة اكتفاؤه الذاتي، الذي يعني معرفة موارده جيداً، ثم ضغط شهواته، ورغائبه، حتى لا تعدو به حدود ما يملك، فلا يضطر إلى استدانة أو مسألة، أو رشوة وسرقة، أو نهب وسطو، ليسدوا بها به أبواب النفقة التي فتحوها على أنفسهم تزيداً وطمعاً [3].

وعلى المسلم أن يمتثل لحديث النبي -ﷺ-: «إياكم والطمع، فإنه هو الفقر» [4]، وحديث: «عليك باليأس مما في أيدي الناس، وإياك والطمع، فإنه الفقر الحاضر» [5].

إن الكد في الدنيا للاستعفاف والغنى من حقائق العبادة، ومن معاني الجهاد، وإن دنيا المؤمنين محكومة بحدود واضحة، تفطم الناس عن كل محرم، وترسم لهم أسلوب انتفاعهم بهذه الدنيا إلى حين، وتأخذهم بأدب واضح من التعفف والقنوع، يحجزهم عن الأهواء والأطماع، ويدفعهم في طريق الاعتدال والقصد، لإقامة الحق، وعبادة الله.

---

(١) "ركائز الإيمان...."، ص ١٨١ ـ ١٨٧.

(٢) رواه أحمد في مسنده، مسند أبي هريرة ﷺ - حديث رقم: ٧٣٢١، وهو ضعيف، قال الألباني: وفيه عنعنة ابن إسحاق وهو مدلس، وقد خرجته في "الضعيفة" برقم: ٥١٧٢، ورواه أحمد بإسناد جيد كذا قال!، وهو من طريق آخر عند أبي هريرة وهو في الباب الأول هنا من "الصحيح".

(٣) "ركائز الإيمان...."، ص ١٨٧.

(٤) "المعجم الأوسط"، للطبراني، باب: العين، باب: الميم ،من اسمه : محمد – حديث رقم: ٧٨٩٧، وهو ضعيف، انظر: ضعيف الجامع ،رقم: ٢٢٠٢.

(٥) "الزهد الكبير"، للبيهقي، فصل في بيان الزهد وأنواعه، حديث رقم: ١١٠، وأخرج نحوه الحاكم في المستدرك بلفظ: « عليك بالإياس مما في أيدي الناس... »، كتاب الرقائق، حديث رقم: ٨٠٠٣، قال الألباني: حسن لغيره، انظر: صحيح الترغيب والترهيب، حديث رقم: ٨٣٢.

إن عظمة الإيمان أنه يتيح لأصحابه امتلاك ما يشاءون، على أن يكون ذلك في أيديهم، لا في قلوبهم، ينزلون عنه جملة وتفصيلاً في ساحة فداء، ويحيون في ظله أعفاء سمحاء [1].

٤ـ الصـــبر:

إن طريق الإيمان ومنهج الشرف والبطولة لابد فيه من صبر طويل طويل، ومعادن العظماء إنما تبرق وسط الأنواء التي تكتنفها، والإنسان يتحرك ويتكشف معدنه، ويعزز إنتاجه كلما أحس خطر المعارضين، أو صدمات الشدائد، فيندفع إلى الأمام، ناشطاً آملاً!.

– وقد شاء الله أن يعيش البشر في بيئة تفرض الكفاح فرضاً، ولا تعطي الثمار إلا بعد غراس، وهذا الجهد المبذول من مصلحة الحياة نفسها، لتبقى وتزدهر، من مصلحة الأحياء أنفسهم، ليبلغوا تمامهم.

– إن الشدائد هي المحك الذي يكشف عن معدن الرجل: قوة وضعفاً، عقلاً وهوىً، وإن حياة الدعة والطراوة قاتلة للمواهب، وتطمر الملكات.

لذا لابد من تصبير النفس على لأواء العيش، وإرهاق الواجب، لكن صبر المؤمنين مشوب بالذكر، بصير بأن القدر الأعلى من وراء الأحداث التي تنوبه، ومن ثم فالمؤمن في شدته يظل قوي الصلة بربه، يدعوه ويرجوه، ويعتمد عليه، ويتحمل. ولن يخذله الله إذا قصده، وليكن صبره لله، الذي يصب ثوابه الجزيل صباً على من ابتلي، وسلم لله أمره، ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [2] وبين الإمام أن الصبر يرتبط بكل مقامات الدين، من أولها إلى آخرها [3]، ومراتب الصبر وأسماؤه بحسب متعلقه، كما وضح ابن القيم، "فإنه إن كان صبراً عن شهوة الفرج المحرمة سُمي عفة، وضدها الفجور والزنا والعهر.

---

(١) "ركائز الإيمان....."، ص ١٩٣ ـ ١٩٦.

(٢) سورة الزمر: آية ١٠.

(٣) "ركائز الإيمان....."، ص ١٩٧ ـ ٢٠٣.

وإن كان عن شهوة البطن وعدم التسرع إلى الطعام، أو تناول ما لا يجمل منه سُمي شرف نفس، وشبع نفِس، وسمي شده شرهاً، ودناءة، ووضاعة نفس.

وإن كان عن إظهاره ما لا يحسن إظهاره من الكلام سمي كتمان سر، وضده إذاعة وإفشاء، أو تهمة أو فحشاء، أو سباً أو كذباً، أو قذفاً.

وإن كان عن فضول العيش سمي زهداً، وضده حرصاً.

وإن كان على قدر ما يكفي من الدنيا سُمي قناعة، وضدها الحرص أيضاً.

وإن كان عن إجابة داعي الغضب سُمي حلماً، وضده تسرعاً.

وإن كان عن إجابة داعي العجلة سُمي وقاراً وتثبتاً، وضده طيشاً وخفة! [1].

وإن كان (الصبر) عن إجابة داعي الفرار والهرب سُمي شجاعة، وضده جبناً وخوراً.

وإن كان عن إجابة داعي الانتقام سُمي عفواً وصفحاً، وضده انتقاماً وعقوبةً.

وإن كان عن إجابة داعي الإمساك والبخل سُميَ جوداً، وضده بخلاً.

وإن كان عن إجابة داعي الطعام والشراب في وقت مخصوص سُمي صوماً.

وإن كان عن إجابة داعي العجز والكسل سُمي كيْساً.

وإن كان عن إجابة داعي إلقاء الكَل على الناس، وحمل همهم كلهم سُمي مروءة.

فله عند كل فعل وترك اسم يخصه بحسب متعلقه.

- والاسم الجامع لذلك كله "صبر"، وهذا يدلك على ارتباط مقام الدين كلها، بالصبر من أولها إلى آخرها.

- وهكذا يسمى عدلاً، إذا تعلق بالتسوية بين المتماثلين، وضده الظلم، ويسمي سماحةً إذا تعلق ببذل الواجب والمستحب بالرضا والاختيار، وعلى هذا جميع منازل الدين" [2].

---

(١) ابن القيم، "عدة الصابرين، وذخيرة الشاكرين"، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق: زكريا علي يوسف، ج١، ص ١١، ١٢ .

(٢) ابن القيم، "عدة الصابرين .."، مرجع سابق، ص ١٢ .

وأوضح الإمام أن الصبر يعمل في النفس عملاً عظيماً، فيبقيها في مجال الاعتدال والتؤدة، والبصر، فالصبر بهذا الشمول امتلاك لأزمة النفس كلها، حتى لا تشرد بها الأهواء، والأنواء يمنة ويسرة.

لذلك أوجب الإسلام الصبر على المسلم في حاليه من خير وشر، ونفع وضر، قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١﴾(١) (٢).

٥ـ الشكـر لله:

في كل طرفة عين، ونبضة قلب، يتعرف الله إلى عباده، عن طريق ما يمنحهم من بركاته، وينزل عليهم من خيراته، وهي بركات وخيرات متجددة، بالليل والنهار.

ونعم الله تنهمر على الناس ليلهم ونهارهم، من المهد إلى اللحد، مما يوجب حمد الله وشكره والثناء عليها بها، ومعرفة حقه فيها.

و"الحمد لله" كلمة تعني - مع الشكر - الثناء على الله، وتمجيد ذاته، وعلى المسلم ترديدها وهو شاعر بالمنة والجميل، مقر بفضله وكرمه.

إن قلة الشكر خسة ونذالة، يجب التنزه عنها، وحقاً ما قال الإمام: "إنك لو أطعمتَ امرءاً شهراً، أو شهرين، أو قضيت عنه ديناً أو دينين، أو رفعته درجة أو درجتين، ثم تجهم لكَ بعد هذه الأيادي، وأعرض عنك، لرأيتَ أن فراغ الحياة من مثله واجب، وأن بقاءه على ظهر الأرض قذىً يتحرك!.

فما ظنك بمن خَلق من عدم، وأطعم وستر، وأغدق وأمد الأعوام بعد الأعوام؟، عندما يرى عبده قد حاز كل هذه النعم، ثم عادَى مُسديها؟".

إن الإقرار بالجميل، وركون الفؤاد إلى صانعه يجعل المرء أهلاً للمزيد، لأن النعمة

---

(١) سورة هود: آية ٩ - ١١.

(٢) "ركائز الإيمان بين العقل والقلب"، ص ٢٠٥.

رؤية الشيخ الغزالي للتصوف ودوره وواقعه ٢٣/ ٠٤/ ١٤٤٠

تثمر فيه، كما يثمر الماء في الأرض الخصبة، ولذلك لا يضن عليها بالقليل والكثير [١].

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[٢]. "وماذا على الناس إذا مرحوا في نعمة الله، أن يطووا ضمائرهم على عرفان الجميل، والاعتراف بالفضل، وأن يقولوا لله المنعم: نشكرك!".

إن الشكر شعور في النفس، قبل أن يكون حركة لسان، وقد رسم الإسلام صوراً ورسم طرقاً للترجمة عن هذا الشعور المكنون.

وفي سيرة الرسول- ﷺ - من مظاهر الشكر، وآيات الحمد لله - تعالى-، ما يثير الدهشة، وما يسري في القلوب شوقاً ورقة....، فكان يذكر الله على كل أحواله، كما ثبت عنه- ﷺ -، وقد انتقل حب الله والإحساس الواضح بنعمته، والرغبة الحارة في إكباره وإجلاله، من قلب الرسول إلى قلوب أصحابه، الذين كانوا يتبارون في تحية ربهم وحمده، وقدره حق قدره [٣].

وبين الإمام أن جهد إبليس كان مُنصَباً على إغراء أبناء آدم بالجحود، ونسيان ما أولاهم الله من نِعم، ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧﴾[٤]. وأسوأ ما يكون الجحود عندما يكون جماعياً، تنحدر إليه أمة بأسرها، فتنسى المنِعم ونعمه، وتنسبها إلى أي شيء ما عداه .

- وهذا الجحود والإنكار لفضل الله هو السبب الأكبر في هلاك عاد وثمود، وقد أمرهم الله بذكر آلائه وأفضاله، فقال لعاد: ﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۡۜطَةٗۖ﴾[٥].

وقال تعالى لثمود - على لسان رسوله صالح عليه السلام -: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ

(١) "ركائز الإيمان بين العقل والقلب"، ص ٢٠٦-٢٠٧.

(٢) سورة الأعراف: آية ١٧ .

(٣) المرجع السابق، ص ٢٠٨ـ ٢١٠ .

(٤) سورة إبراهيم: آية ٧ .

(٥) سورة الأعراف: آية ٦٩ .

رؤية الشيخ الغزالي للتصوف ودوره وواقعه ٢٣/ ٠٤/ ١٤٤٠

ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾[1] لكنهم أبوْا الشكر والاعتراف بالجميل لصاحبه فأهلكهم الله .

وأورد الإمام كثيراً من الأحاديث والآثار عن الصحابة والتابعين تدعم وجوب شكر الله، وذكر عطاياه [2].

وقد كان الشيخ محمد الغزالي شاكراً لله، مقدراً لنعمه وآلائه، مقراً لمولاه بفضله وحكمته، وذكر أنه تلفَّت يوماً إلى ما مضى- من حياته، "فرأيت صبياً من الخيرات قد غمرني ظاهره وباطنه، و متونه وحواشيه، وأحسست أن ما يضايقني - أحياناً - كان علاجاً حكيماً لعلل نفسية، لو بقيت معي لكَبت بي، ونالت مني!.

وسألت نفسي: كيف شكرْها على هذا الخير الغدق؟، فكان الجواب: لقد شكرت النعماء يوم قُدمَت، فلما استقرت بدأ الشعور الحار يبرد، والاعتراف بالجميل يخف!.

كذلك يفعل الناس، وتلك عادتهم مع المنِعم الأعلى، فهل هذه سبيل الاستزادة من خيره وبره؟.

وتذكرت كلمة لابن عطاء الله "كيف يخرق لك العوائد، وأنت لم تخرق من نفسك العوائد"؟! [3].

٦- الخوف من الله:

إن الخوف من الله عاطفة، تنبع من حسن معرفة العبد بربه، وكمال علمه به، وهو شعور واضح بجلال الخلاَّق العليم، وما ينبغي أن يُكن لربنا من مهابة وإعظام.

وصدق الإمام في قوله: "وكيف لا يُخشى جبار السموات والأرض، الذي بيده ملكوت كل شيء، والذي لا تماسك شيء إلا بإيجاده، وإمداده،....؟".

وخشية الله - سبحانه - تدل على شرف النفس، ويقظة الحس، وامتلاك الزمام في الساعات الحرجة.

---

(١) سورة الأعراف: آية ٧٤ .

(٢) "ركائز الإيمان....."، ص ٢١٢ ـ ٢١٤.

(٣) "المرجع السابق"، ص ٢١٨.

هذه الخشية تجعل المؤمن يقظاناً، يؤدي واجبه. بكل أمانة وحفظ وعزم وإتقان، ويطارد في نفسه نوازع الشر، ويرفض اقتراف المنكرات، خاصة في غيبة رؤية أحد له.

- إن ترك ما حرم الله خوفاً من الله - تعالى - هو الأساس الأعظم في تكوين الشخص الشريف، المأمون، ويكاد الخوف من الله - وحده - يكون هو العامل الحاسم في كثير من المواقف القلقة، والعاصم المنجي من ثوران بعض الغرائز العنيفة، وجماحها الشديد [1].

وقد كان رسول الله -ﷺ- أخوف الخلق من ربه وأتقاهم له، وقال عن نفسه" «فو الله، إني لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية»[2]، وقد رأى الصحابة عشرات المواقف والأحداث التي تؤكد لهم قوة وعمق خشية رسول الله من ربه وتعظيمه له.

وقد ذكر النبي -ﷺ- للصحابة نماذج إنسانية امتلأت حباً لله وخشية لها، وإشفاقاً من عظمته وبطشه الشديد [3].

٧ ـ الرجاء في الله:

إن الرجاء الحار في رحمة الله وعطائه لا يجوز أن يفارق المؤمن في أي لحظة من حياته، وهذا الرجاء في الله - تعالى - وحسن الظن به، إنما يُقبَلان إذا اقترنا بالعمل الواجب، وصحبهما الإسراع في حق الله، والسهر على مرضاته.

أما مع البطالة والاسترخاء، فلا مكان لرجاء، ولا موضع لحسن الظن.

وذلك المعنى المهم واضح في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [4].

إيمان وهجرة وجهاد، تلك هي التي يرجو أصحابها فضل الله -تعالى-، أما الريبة والقعود والراحة فلا تبلّغ أملاً، ولا تنتج إلا شراً.

---

(١) "ركائز الإيمان....."، ص ٢٢١ ـ ٢٢٣.

(٢) صحيح البخاري - كتاب الأدب، باب من لم يواجه الناس بالعتاب - حديث رقم:٥٧٥٦.

(٣) انظر "ركائز الإيمان ..."، مرجع سابق، ص ٢٢٤، ٢٢٥ .

(٤) سورة البقرة: آية ٢١٨ .

وآية سورة فاطر تبين أسباب الرجاء الحق في الله وفي التمكين والنصر والنعماء، وهي قوله – تعالى –: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ۝٢٩ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ۝٣٠﴾[1]

إن الأسباب تتمثل فيما يلي:

١ – تلاوة القرآن، وتعني إحياء تعاليمه وإعزاز شرائعه.

٢ – إقامة الصلوات، والإقبال على الجماعات، إقبالاً يُعلي ذكر الله – تعالى – في الحياة، ويجعل الهتاف باسمه وحده شارة الأمة[2].

٣ – النفقة التي تسد ثغرات المجتمع، ما عُلن منها وما خفي.

وبين الإمام أن قلة الاكتراث بالواجب، وسرعة التهاوي على المحرم، لا يمكن أن يكونا في نفس تحسن الظن بالله – تعالى ..

ومن التلاعب بالألفاظ، والجهل – معاً – وجود أمم مفرطة في أحكام الله، متعدية لحدوده، ومع ذلك تؤمل في نعيم الله و رضوانه بدعوى إحسان الظن بالله – سبحانه ..

ومن أدعياء التدين من يجرئ العامة والخاصة على الإفلات من ربقة الدين، باسم الأمل في رحمة الله، والتعويل على حسن الظن[3].

وذلك كله ضرب من الفوضى الفكرية والخلقية ينبغي التصدي لها، كما تصدى لها الأئمة الكبار، من قبل، كالإمام أبو حامد الغزالي، وابن الجوزي، ويحي بن معاذ[4]، وغيرهم[5].

ومما قاله يحيى بن معاذ: "من أعظم الاغترار عندي التمادي في الذنوب، مع رجاء

---

(١) سورة فاطر: آية رقم ٢٩ – ٣٠.

(٢) "ركائز الإيمان بين العقل والقلب"، ص ٢٢٦–٢٢٨.

(٣) "المرجع السابق"، ص ٢٢٩–٢٣٣.

(٤) هو أبو زكريا، يحيى بن معاذ الرازي، واعظ، زاهد، لم يكن له نظير في وقته، أقام ببلخ، ومات في نيسابور، له كلام كثير حكيم، ومواقف تربوية مؤثرة. توفى عام ١٩٥هـ، انظر "الأعلام"، للزركلي، ج٨، ص ١٧٢، و"تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، ج ١٤، ص ٢٠٩ ـ ٢١١، و "حلية الأولياء"، ج١٠، ص ٥١ ـ ٥٣، و"سير أعلام النبلاء"، ج ١٣، ص ١٦ .

(٥) "ركائز الإيمان....."، ص ٢٢٦ ـ ٢٣٦.

العفو من غير ندامة، وتوقع القرب من الله – تعالى – بغير طاعة، وانتظار زرع الجنة ببذر النار، وطلب دار المطيعين بالمعاصي، وانتظار الجزاء بغير عمل، والتمني على الله – ﷻ – مع الإفراط".

لذا، فإن العبد إذا بث بذر الإيمان، وسقاه بماء الطاعات، وطهر القلب من شوك الأخلاق الرديئة، وانتظر من فضل الله – تعالى – تثبيته على ذلك إلى الموت، وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة، كان انتظاره رجاء حقيقياً، محموداً في نفسه، باعثاً له على المواظبة والقيام بمقتضي الإيمان في إتمام أسباب المغفرة إلى الموت، وإن قطع عن بذر الإيمان تعهده بماء الطاعات، وترك القلب مشحوناً برذائل الأخلاق، وانهمك في طلب لذات الدنيا، ثم انتظر المغفرة، فانتظاره حمق وغرور [1].

وفي ذلك قال الرسول – ﷺ –: «الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني» [2].

إن من الضروري أن يجمع المؤمن بين الخوف والرجاء، لأن النفس الإنسانية تحتاج إلى زمام يقودها، وسوط يسوقها، وكما قال ابن عطاء: "لا يخرج الشهوة من القلب إلا خوف مزعج، أو شوق مقلق" [3]، لابد من شوق، ولابد من خوف، لابد من رغَب ومن رهب، التوازن بين الخوف والطمع هو ما وصف به القرآن الأنبياء، فقال عنهم: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [4]

وقال عن صالحين آخرين: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [5].

– المهم هذا التوازن تمتلئ به نفس المسلم، بحيث لا يطغى عليه الخوف حتى يبلغ

(١) المرجع السابق، ص ٢٣٧.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه – كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له – حديث: رقم٤٢٥٨، والحاكم في مستدركه – كتاب الإيمان، حديث رقم:١٧٥، وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه.

(٣) انظر: حكم ابن عطاء الله، . ص ٣٥٩.

(٤) سورة الأنبياء: آية رقم ٩٠.

(٥) سورة الإسراء: آية رقم ٥٧.

درجة اليأس من روح الله، أو يطغى عليه الرجاء، حتى يبلغ درجة الأمن من مكر الله، لابد من الأمرين معاً، وفي القرآن: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾[1] [2].

٨ـ التـــوكـل:

إن التوكل على الله شعور وإيمان بهيمنة الله على الحياة، وبأن حركاتها وسكناتها محكومة بحوله وقوته، هذا الشعور المستقر في القلب يجعل صلة الإنسان عميقةً بربه، فيركن إليه، ويأنس به.

هذا التوكل دلالة علم بالله وصفاته وما ينبغي له، وفيه بصيرة من العبد بالحدود التي تعمل في نطاقها قدرته وإرادته، وبالمدى الواسع الذي تتصرف فيه الإرادة العليا والقدرة العليا.

لذا يظفر المتوكل الصادق برعاية الله وتوفيقه ومحبته،﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡ﴾[3] ﴿وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾[4] ومن المعاني الواضحة للتوكل أنه ركون الإنسان إلى الله فيما لا طاقة له به، لأنه لا يستطيع عمله، أما ما يدخل في حدود طاقته ويملك البتَّ في بدايته ونهايته فعليه إفراغ وسعه فيه.

وأمْر الله بالتوكل جاء بعد إعلان عن عمل موصول وصبر طويل، فقال آمراً نبيه: ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾[5][6].

وأجاب الرسول- ﷺ -الأعرابيَّ الذي سأله: أتركها (الناقة)، وأتوكل، أم أعقلها وأتوكل؟ فقال النبي له: «اعقلها وتوكلْ» [7].

---

(١) سورة المائدة: آية رقم ٩٨.

(٢) د/ يوسف القرضاوي، "الحياة الروحية في الإسلام"، ط١، ٢٠٠٩م، ص ٣٥٩، مكتبة وهبة، ص ٥٠ ـ ٥٤.

(٣) سورة آل عمران: آية رقم ١٥٩.

(٤) سورة الطلاق: آية رقم ٣.

(٥) سورة هود: آية رقم ١٢٣.

(٦) "ركائز الإيمان....."، ص ٢٣٩، ٢٤٠.

(٧) أخرجه الترمذي في سننه – كتاب الذبائح، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله- ﷺ - حديث رقم:٢٥٠١، وقال: هذا حديث غريب من حديث أنس لا نعرفه إلا من هذا الوجه ". وقد روي عن عمرو بن أمية =

إن التوكل إيمان بالغيب، بعد استنفاد كل الوسائل المقررة في عالَم الشهادة، إيمان بالله بعد أداء كل ما يرتبط بالنفس من واجبات.

وأحوج ما نكون إلى التوكل في مجال طلب الرزق، وهو مجال محك قاسٍ للأخلاق والمسالك، والإسلام يرفض أن يكون الكدح وراء الرزق مزلقة لآثام الكذب والختل، والتلون والحيف وتملق الأقوياء. لذا أوجب الإسلام الارتزاق من أبواب الحلال المحض، بلا غش أو ذل أو ضيم!، بل شرف في التكسب، واستقامة في الطلب [1].

إن التزام التقوى في معالجة هذه الشئون وأمثالها هو منطق الإسلام، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [2] [3].

أما الموطن الآخر الذي ينبغي فيه توفر التوكل الكامل في قلب المؤمن فهو الكفاح في سبيل إبلاغ رسالات الله، وشرائعه وأحكامه، ومحاربة الطغاة المستبدين، وإصلاح شئون الأمة، وإنقاذ الحقائق الكبيرة، والحقوق الضائعة، ومحاولات استئصال الحق وأهله، وغرس الباطل والمبطلين. إذ يجد أصحاب الرسالات مخاوف مزعجة، وآلاماً شديدة، وقوى شريرة ظالمة... الخ. ولن يثبتوا إلا لأملهم في الله واستنادهم إليه، وتوكلهم الذي ينير أمامهم ظلمات الحاضر، ويجرئهم على مواجهة الجبروت بعزم.

لذا كان الصمود على الحق وتحمل الأذى في سبيل الله شعار المرسلين وأتباعهم، ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾ [4]

إن الشعور بصحبة الله ومعيته هو المؤنس في هذه الوحشة، وهو المشجع في هذه الرهبة، وذلك معنى التوكل في تلك المواقف.

وهو ما نزل به الوحي على قلب الرسول -ﷺ- أول ما طرقته الرسالة، فقال الله

الضمري وأخرجه ابن حبان في صحيحه - كتاب الرقائق، باب الورع والتوكل - ذكر الإخبار بأن المرء يجب عليه مع توكل القلب الاحتراز بالأعضاء، حديث رقم: ٧٣١.

(١) "ركائز الإيمان....."، ص ٢٤١.

(٢) سورة الطلاق: آية رقم ٢-٣.

(٣) "المرجع السابق"، ص ٢٤١، ٢٤٢.

(٤) سورة إبراهيم: آية رقم ١٢.

لـــــه: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠﴾[1]

إن مرد الأمور إلى الله، وهو – سبحانه – إذا وهب النصر فلن يعترضه أحد، وهو ناصر جنده لا محالة، والباطل يأخذ جولته، ثم يتلاشى، وليس أمام أهل الإيمان إلا التعويل على الله، والرجاء فيه، ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٦٠﴾[2]

إن التوكل على غير الله قصير العمر، أو عديم الجدوى، أما التعلق بالله فهو ارتباط بالمصدر الدائم للخير، ولذلك قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ﴾[3][4].

٩ـ الحب لله، ورسوله، ودينه:

إذا صحت محبة الله في قلب امرئ، فقد تبوأ قمة الكمال، وتهيأ لفضلٍ من الله جزيل ولمحبة الله آثار عملية في الحياة، تبدأ من امتلأ قلوب المؤمنين محبة لربهم، مع تلقي أمره بالإعظام والحفاوة، وولاء لله، يدنيهم من كل مؤمن به، ويكرّههم في كل فاسق عن أمره، مع السلم لأوليائه، والحرب على أعدائه.

هذا الحب لله ينهض بهم لتنفيذ وتبليغ رسالات الخير، وهزيمة كل ألوان الشر.

– إن عاطفة الحب الإلهي نعمة ومنة من الله – تعالى – على عبده، واصطفاء من الجليل – سبحانه، ينغرس في قلوب العارفين به، وفي الأيدي الممدودة إليه – تعالى.

والمعرفة كما تكون عن جهد الإنسان في الفكر والذكر والتأمل، والتنزيه، تكون فيما يكشفه الحق عن عظمة الذات وجمالها لبصائر المتعلقين به، وعلى قدر هذا الانكشاف يكون الإعظام والحب والتفاني، والله – تعالى – أهل لكل حب، وأولى بتعلق القلب من

(١) سورة المزمل: آية رقم ٨ – ١٠.

(٢) سورة آل عمران: آية رقم ٨ – ١٠.

(٣) سورة الفرقان: آية رقم ٨ – ١٠.

(٤) "ركائز الإيمان....."، ص ٢٤٣ـ ٢٤٥.

حب المرء لوالده وولده، ونفسه التي بين جنبيه!.

ومقتضى حب الله -ﷻ- أن يطيع الإنسان أمره، ويدع نهيه، ويحرص على رضاه، وكلما رَبَتْ هذه العاطفة فعل الإنسان الكثير لله، دون أن يحس تعباً، لأن ما غمر فؤاده من شعور يهوّن عليه المشاق.

إن دعوى الحب مع التفريط في الحقوق، ومع الاستهانة باتباع الرسول دعوى منكَرة، فإن من أحب الله يتأسى برسوله، ويستظل بلوائه، ويقتفي في الدقيق والجليل بأثره، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[1] [2].

(١) سورة آل عمران: آية رقم ٣١

(٢) "ركائز الإيمان..."، ص ٢٤٦ ـ ٢٥٠.

المبحث الخامس:

بعنوان :
حكم ابن عطاء الله أحد
نماذج التصوف الصحيح .

تعريف موجز بابن عطاء الله:

هو أحمد بن محمد بن عبد الكريم ...، بن عطاء الله، تاج الدين، أبو الفضل، الاسكندراني، الشاذلي، صحب وتتلمذ على الشيخ أبي العباس المرسي، صاحب الطريقة الشاذلية.

- كانت لابن عطاء الله خلال عجيبة ووقع في النفوس وفضائل جمة، وكرامات وأحوال وجلالة ومهابة وأدب وفضل .

كان يتكلم بالجامع الأزهر وغيره من الجوامع، ويمزج كلام القوم (الصوفية)، بآثار عن السلف، وفنون من العلم، فكثر أتباعه، وكان عليه سيماء الخير [1]، لوعظه تأثير قوي في القلوب، وعبارته عذبة، لها وقع في النفوس .

لقد كان ابن عطاء الله في بداية أمره فقيهاً عالماً ينكر على الصوفية، ثم شاء الله له صحبة شيخ الشيوخ أبي العباس المرسي، وفتح له على يديه، بعد أن كان من المنكرين عليه، والمعترضين على طريقه [2] . وقد لازمه اثنى عشر عاماً، حتى تمكن من العلم والطريقة، فاستقر في الأزهر، يدرّس الفقه والتصوف [3] .

وقد كان ابن عطاء الله إماماً في التفسير والحديث والأصول، متبحراً في الفقه.

وقعت لابن عطاء الله كرامات كثيرة، رآها وحكاها أصحابه [4] .

وقد ترك مؤلفات مهمة في مجال التصوف، من أهمها: "الحكم العطائية"، وقد نالت شروحها الداني والبعيد، وقرأها الكبير والصغير، ومازالت مرجعاً وافياً في لون

---

(١) محمد بن علي الشوكاني، "البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع"، د،ن، ج١، ص ١١٠، وصلاح الدين الصفدي، "الوافي بالوفيات"، تحقيق: جلال الدين الأسيوطي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٠م، ج٦، ص ٢١٤ .

(٢) أبو محمد، عبد الله بن أسعد اليافعي، "مرآة الجنان"، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ج٤، ص ١٨٥ .

(٣) ابن عطاء الله السكندري، "لطائف المنن"، تحقيق: خليل منصور، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٥م، ص٨١، العلامة أحمد زروق، "الحكم العطائية بشرح الشيخ زروق"، تحقيق: رمضان محمد بن علي البدري، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٨م، ص ٩ .

(٤) "لطائف المنن"، مرجع سابق، ص ٢٧٢، ٢٨٢ .

متميز من ألوان السلوك الإنساني، وقد شرحها أئمة كثيرون في القديم والحاضر .

– لـه كتـاب عـن شـيخه أبي العبـاس، باسـم: "لطـائف المـنن في مناقـب الشـيخ أبي العباس المرسي، وشيخه الشاذلي، أبو الحسن" .

– كتـاب "التنـوير في إسـقاط التـدبير"، و"تـاج العـروس، الحـاوي لتهـذيب النفوس". و"القول المجرد في الاسم المفرد" وغيرها من كتب نافعة [1] .

وقد أثنى عليه أئمة كثيرون، ومناقبه وفضائله كثيرة .

مات–~ –عام ٧٠٩هـ، بالمدرسة المنصورية، وكانت جنازته حافلة [2] .

قام الشيخ الغزالي بشرح كلمات حكيمات لابـن عطـاء الله السـكندري تحـت عنـوان "من تجارب المربين"، راجياً أن تكـون إيناسـاً لمـن يأخـذون أنفسـهم بضـوب التربيـة، ووصفاً لمعالم الطريق من أناس خبراء بها، مهرة فيه. وكان الإمام محباً ومقدراً لابـن عطـاء الله السكندري، وذكر أنه كان يقرأ لابن عطاء الله فيشعر بالدهشة، ويخيـل إليـه أن حِكمـه هي أوْلى المؤلفات بكلمة سعد زغلول "كأنها تنزيل من التنزيل، أو قـبس مـن نـور الـذكر الحكيم".

وقد وصف الشيخ الغزالي ابن عطاء الله بصفات رائعة، منها أنه:(رجل خبير بـالله، وخبـير بـالطريق إليـه، وخبـير بـالنفس البشـرية وعللهـا، راغبـاً في أن يربطـك بربـك، لـه نظرات عميقة الفكرة، فاهم للإسلام جيداً[3]، ومـن تلـك الحكـم التـي وضـع الإمـام لهـا عناوين من عنده ما يلي:

١ـ التعـب الضائـع:

– مـن هـذه الحكـم المربيـة لابـن عطـاء الله، قولـه: "اجتهـادك فـيما ضُـمن لـكَ،

(١) انظر "شذرات الذهب"، لابن العماد، ج٨، ص ٣٧، و"الحكم العطائية، بشرح الشيخ زروق"، للشيخ أحمد زروق، ص ١٠ وغيرها، و"الطريقة الشاذلية وأعلامها"، لمحمد أحمد درنيقة، ط. ٢٠٠٩م، المؤسسة الحديثة للكتاب، لبنان، ص ١٠٤ .

(٢) "الوافي بالوفيات"، لصلاح الدين الصفدي، ج٦، ص ٢١٤ .

(٣) "حوارات الشيخ الغزالي، السيرة والمسيرة"، ص ٨٥. ورغم هذا الحب والتقدير، إلا أن الإمام انتقد ابـن عطـاء الله في بعض القضايا، انظر ص ٨٥ من "حواراته". انظر (الحكم العطائيـة) ،لابـن عطـاء الله ،شرح ابـن عبـاد النفـري الرندي ، ط١،مركز الأهرام للترجمة والنشر ،١٩٨٨،ص٤٧.

وتقصيرك فيما طُلب منكَ دليل على انطماس البصيرة".

وقد وضع الإمام لهذه الكلمة عنواناً معبِّراً هو: "التعب الضائع".

وبين فيها أن الناس وراء لقمة الخبز يكاد يصيبهم مس، مع أن الله لو وكل رزق الخلائق لقواها لبادت، وقد ضمن أرزاقهم وأجرى مصادرها بين أيديهم رخاء!.

وهم مع ذلك مكروبون في طلب العيش المكفول لهم، "أما إحسان الصلة بالله وتوجيه الفكرة إليه، والتعاون مع الآخرين على إقامة دينه، والتزام حدوده، فهو ما يقصرون فيه أو ينصرفون عنه".

ويتساءل الإمام: "ما تقول في امرئ يتقاعس عندما يحتاج الأمر إلى همة ونشاط، ويهتم وينشط عندما يكون المر قريباً من أصابعه؟".

وختم الإمام شرحه بقوله: "إن هذا المسلك مع الله دليل انطماس في البصيرة" [1].

٢ـ استعجال الشهرة:

من الكلمات المعالجة لحب الظهور على عجل، واستعجال البروز قبل استكمال المؤهلات المطلوبة للقيادة، والصدارة بين الناس، قول ابن عطاء الله: "ادفن وجودك في أرض الخمول، فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجُه".(*)

هذه الكلمة تبين أهمية المعرفة والخبرة وامتلاك متطلبات القيادة والإمامة في آفاق الدنيا، أو في آفاق الدين، فإن ذلك يتطلب صبر السنين، وتغضين الجبين!.

وطالَب بعد استكمال المؤهلات بالإخلاص الكامل لله، "فإن الذي يطلب وجوه الناس يسقط من عين الله"!. وقد وضع الإمام عنواناً لهذه الحكمة، هو "استعجال الشهرة"[2].

---

(١) "ركائز الإيمان بين العقل والقلب"، ص ١١٣.

(*)انظر (الحكم العطائية)،شرح ابن عباد، مرجع سابق ،ص٤٨.

(**) المرجع السابق ،ص٤٨.

(٢)(ركائز الايمان بين العقل والقلب)،ص١١٤.

٣ - تسليـم لله:

- ومن الحِكم الجليلة التي شرحها، قول ابن عطاء - رحمه الله -: "ما ترك من الجهل شيئاً من أراد أن يحدث في الوقت غير ما أظهره الله فيه"، ووضعها تحت عنوان: "تسليم لله". (**)

وبين الشيخ في شرحه أن القدر لا يجري وفق هوى العبد، فإن وراء الواقع الذي نهش له أو نضيق به حِكماً عليا، تجعل الحوادث تسير، ولا صلة بها برضانا أو سخطنا!.

وقال: "من أراد تغيير قدر غالب، وأحب تقديم شيء أخَّره الله، أو تأخير شيء قدمه الله، فهو ينطح الصخر، ولن يستفيد من ذلك إلا تصديع رأسه".

وعلى العاقل أن يرسم خطته على أن ما حدث حقيقة، لا مناص من الاعتراف بها، ثم يبني سلوكه بعد ذلك، وفق ما يشير به الحزم، ويوحي به السداد.

وذكر الإمام من تجاربه في الحياة أن أكثر ما نفعه كان مما ضاق به، بادئ الأمر، وأن الآلام المزعجة، والشدائد الباهظة هي التي فتقت العقل، ونمَّت المواهب، وأماطت النقاب عما نجهل من شئون وشجون[1].

وفي نفس المعنى كانت كلمة ابن عطاء الله: "إرادتك التجريد مع إقامة الله إياك في الأسباب من الشهوة الخفية، وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك في التجريد، انحطاط عن الهمة العلية". (*) رأى الإمام أنها كلمة تخفف من قلق ألوف الناس في أعمالهم ووظائفهم، وتعالج تبرمهم وشكاواهم وحسرتهم، لعدم رضاهم بما هم فيه!.

وجمهرتهم يعتقد أن لو كان في مكان كذا، أو لو تيسر له كذا، لكان أفضل له!، مع أن أغلبهم لا يحسن الانتفاع الكامل بأوضاعه الحالية.

وصدق في قوله: "ولو غلَّبوا الرضا، والتفاؤل، لاستثمروا ما هم فيه استثمارًا أوسع دائرة، وأوفر حصادًا".

إن على المسلم إفراغ الوسع في توفير الضمانات التي يراها المرء محققة لخيره، صائنة لحاضره ومستقبله، ثم قبول الواقع بعد ذلك، دون ضجر مؤذ، أو ضيق مُغر بالسلبية

---

(١) "ركائز الإيمان بين العقل والقلب"، ص ١١٥. (*) (الحكم العطائية)، شرح ابن عباد، ص٤٦.

والعجز، "لنثق في الله، لنسلّم له ما أراد، ولنشعر بأن له حكمة أعلى وحكماً أنفذ....، عش في الواقع، فإذا لم يكن ما تريد، فأرد ما يكون".

إن التجرد من الأسباب القائمة ضرب من البطالة، والتطلع إلى الاشتغال ببعضها لون من الرغبات، وابن عطاء الله يريد أن يقول: إذا قررتَ السير إلى الله، فإنك تستطيع الانطلاق إليه فور قرارك هذا، مهما كان المنصب الذي تتولاه، أو الحرفة التي تشتغل بها أو الحال التي وصلْتَ إليها، وقد تحدثك نفسك بأن ترك عمل ما، أو الاشتغال بعمل ما، يكون أعون لك على السير، وهذا خطأ! [1].

وتعليقاً على كلمة ابن عطاء الله "إرادتك التجريد...الخ"، بين الإمام أن في حياته مواقف تثبت صدق كلام ربنا القائل: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡ﴾ [2].

فذكر أنه – أحياناً – كان ينفر من وظيفته الإدارية، ويتمنى العزلة، ويحسد من لديهم ثروة تكفيهم مؤنة الاختلاط بالخلْق. وأحياناً كان يكره العزلة، ويطلب العمل بشدة، ليمحو ويثبت ما يرى محوه وإثباته! [3].

وكان يشعر – أحياناً – بأن المعزول فارٌّ من المعركة، أو أسير سقط عنه التكليف، وأن العمل توطيد مكانة ووسيلة خدمة [4].

وفي ذلك قال" "إني أشهد – على ضوء تجاربي التي حفرتها الأيام من حياتي – أن أنفس ما يعلي شأني أني وليد أمور كنتُ بها ضائقاً، أو أتت بعيداً عن تفكيري وتقديري، ولو سارت أحوالي وفق ما أهوى ما كنت إلا أحد الهمل، ولو وكلت إلى نفسي- ورغباتها المجابة لهلكتُ".

وما أصدق قول الله في كتابه: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا

(١) "المرجع السابق"، ص ١٧٨ ـ ١٧٩.

(٢) سورة البقرة: آية رقم ٢١٦ .

(٣) "ركائز الإيمان بين العقل والقلب، ص ١٨٠.

(٤) " المرجع السابق، ص ١٧٨.

رؤية الشيخ الغزالي للتصوف ودوره وواقعه ٢٣/ ٠٤/ ١٤٤٠

وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾[1] "[2].

٤ـ ثـق في ربـك:

تحت عنوان "ثق في ربك" علق الإمام على قول ابن عطاء الله: "ما توقف مطلب أنتَ طالبه بربك، ولا تيسر مطلبَ أنتَ طالبه بنفسك"،(*) وبين أن المرء يكون قوةً غالبة عندما يعمل، وهو يستمد من الله العزم والجهد، والتوفيق والنجاح [3].

وقد كان رسول الله- ﷺ -يلقىَ الأعداء بهذا الروح المستظهِر ببأس الله وحده، فكان يقول: «اللهم بك أصول، وبك أجول، وبك أقاتل، اللهم إنا نجعلك في نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم»[4].

أما إذا شمخ الإنسان بحوله وطوله وأنِس بما أعد، وذهل عن الله، المهيمن على الحياة، فإن النتائج تفجؤه بما لا يُتوقع.

إن الواجب استعانة المرء بالله في كل شيء، فإن عون الله إذا تخلف لم يُغن عنه شيء.

ومعنى طلب العبد الشيء بالله، ضم سبب الله القوي إلى ما بين يدي العبد من أسباب، لا أن يكسل أو يفرّط، فإن الكسل والتفريط عصيان لله، وخروج عن شرع الله ودينه[5].

٥ـ اليأس من الناس:

وضع الإمام هذا العنوان التربوي، لحكمة ابن عطاء الله: "ما بسقت أغصان ذل إلا على بذور طمع". (*)

وقد بين فيها أن الطمع في العبيد خالط ألوف القلوب، فأفسدها، "وكم من حقوق طُمست، ومصالح عُطلت، وأوضاع اعوجت، بسبب أطماع نفسية محقورة".

---

(١) سورة البقرة: آية رقم ٢١٦ .

(٢) (ركائز الايمان) ، ص ٢٥١. (*) (الحكم العطائية) ،شرح ابن عباد ، مرجع سابق ،ص ٥٠.

(٣)(ركائز الايمان)، ص ١١٧.

(٤) رواه أحمد في مسنده، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند الخلفاء الراشدين، مسند علي بن أبي طالب رضي الله عنه، حديث،رقم :٦٨٠، وضعفه الألباني، انظر: ضعيف الجامع،رقم:٤٣٣٤ .

(٥) "ركائز الإيمان....."، ص ١١٨. (الحكم العطائية)، شرح ابن عباد، مرجع سابق ،ص٥٦.

هذا الطمع يجعل العالم يتكلم بصوت خفيض، وطرف كسير مع الحكام الجائرين، ولو شاء لرفع صوته كالرعد، ولكنه يهمس حيناً ويخرس أحياناً، لأن بذور الطمع في نفسه نمت فأذلته، وتطلعه إلى ما في يد فلان، وجاه فلان، يجعله يلين وينكسر وينكمش.

"ولو أنه يئس من عطاء الخلْق، وأنس بعطاء الخالق لكان أعز نفساً، وأعلى رأساً"، وصدق في قوله: "ماذا يرجو الفقير من فقير مثله، وماذا يبغي العاجز من عاجز مثله؟".

لذا، فإن على العبد الرشيد ألا يقف سائلاً إلا بباب الله القوي الغني، ويحتاج إلى تدريب نفسه على العفة، والأنفة، والاكتفاء الذاتي الذي يصده عن التطلع إلى ما بأيدي الآخرين، والاستغناء بالقليل الموجود عن الكثير المشتهَى! [1].

٦ـ نقص القادرين على التمام:

حذر الإمام من صحبة القاصرين والعجزة، وأهل البلادة، والجهالة، وطالب المسلم بألا يقارن جهده المحدود بأعمالهم، أو علمه القليل بأفكار أهل الجهالة، فيظن نفسه على شيء طائل، وهو في الحقيقة فقير إلى ما يكمل مواهبه، ولكنه مخدوع!.

إن صحبة هؤلاء والمقارنة بهم تغر وتستر عن النفس ما كمن في هؤلاء القاصرين من نقص، وتخفى عن الجادين قدرتهم على نيل درجات كمال لو أرادوا ونشطوا!.

فصحبتهم وبال على الإنسان، لأنها تقيد الهمة، وتشل الطموح.

لذا، وجب صحبة أهل العلياء والطموح والعزة، فذلك دافع للاقتداء بهم والمضي في طريقهم.

هذه المعاني الراقية جاءت في حكمتين عظيمتين، هما: "ربما كنتَ مسيئاً، فأراك الإحسانَ منك صحبتك لمن هو أسوأ حالاً منك"، و "لا تصاحب من لا ينهضك حاله، ولا يدلُّك على الله مقاله". (*)

وقد وضع الإمام عنواناً لهاتين الحكمتين، هو: "نقص القادرين على التمام" [2].

---

(١) "المرجع السابق"، ص ١١٩، ١٢٠.

(٢) "ركائز الإيمان بين العقل والقلب"، ص ١٢١. (*)((الحكم العطائية)، شرح ابن عباد،ص٥٠.

(**)المرجع السابق، ص ٥٢.

٧ـ أحذرك نفسك:

تحت عنوان "أحذرك نفسك" وضع الإمام حكمة ابن عطاء الله القائلة: "أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضا عنها، لأن تصحب جاهلاً، لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه، فأي علم لعالم يرضى عن نفسه؟، وأي جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه؟". (**)

وبين في شرحه أن النفس الإنسانية لا يطلب لها العافية إلا من أدرك ما بها من أدواء، والشعور بالنقص أول مراحل الكمال.

لذا، فإن الرضا عن النفس، وعيوبها ونقائصها، مضيع، ومبقٍ لكل أمراضها وعللها، "فأي قيمة لشخص، يختزن في رأسه قدراً من المعلومات، ولكن نفسه طامحة بآثام لم تعالَج، وخشونة لم تهذب، ثم هو - مع ما يختزن من معرفة، لا يدري أنه عليل!".

إن علم هؤلاء آفة، لأنه يقوي جهالاتهم، ولا يزيلها، ويغرهم بما أوتوا، بدلاً من إدراك نقصهم وعيبهم.

إن الأفضل منهم "رجل قليل المعرفة، عميق الإخلاص، كثير التفتيش عن عيوبه، مجتهد في تزكية نفسه، وترقية أحواله، إن هذا أرجى عاقبة، وأرقى عاجلة من العلماء الكبار، إذا رضوا عن أنفسهم، وغفلوا عن إصلاحها.." [1].

٨ـ الاستكانة لله:

تحت عنوان "الاستكانة لله" كانت حكمة ابن عطاء الله: "ربما فتح لك باب الطاعة، وما فتح لكَ باب القبول، وربما قضى عليك الذنب، فكان سبب الوصول، معصية أورثت ذلاً، وانكساراً، خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً". (*)

وقد حذر الإمام في شرحه من نفر من أهل العبادة يحسنون الشكل، ولا يحسنون الموضوع، يقيمون الظواهر بدقة، ولا يدركون من الحقائق شيئاً، يستعلون على الخلق

(١) (ركائز الايمان)،مرجع سابق ص ١٢٢.

بطاعاتهم.

وبين أن الطاعة تجعل صاحبها متحققاً بأوصاف عبوديته بين يدي ربه ومع صنوف الخلق، فيكون التواضع ولين الجانب وكرم المعاملة.

وقد أورد الإمام حديثاً عن ضرورة القيام بالعبادة بطريقة تحقق الإخلاص لله وحسن الخلق، فالعبادة جسم وروح، والقبول الإلهي يكون لمن قدمها حية، لا ميتة، الحديث هو: «مثل الصلاة المكتوبة كالميزان، من أوفي استوفى»[1].

وحديث آخر قال فيه الرسول -ﷺ-: «لا يقبل الله من عبد عملاً حتى يشهد قلبه مع بدنه» [2].

وذكر أن الله شرع العبادات، ليتواضع العباد بها، لا ليستكبروا، وليستقبلوا بها رحمة، ثم يلقوا بها سائر الخلق، وفي قلوبهم رقة، وفي نفوسهم وداعة، وفي سيرتهم طيبة.

والله – سبحانه – كره المعاصي وحرمها على الناس، ومع ذلك بعض الناس تكون المعصية وخزاً لضميره النائم، وحزناً ينقذف في قلبه، فإذا هو دامع العين، منكسر الفؤاد لله، متهيب لبطش الله به.

هذا النادم الوجِل خير عند الله من العابد المتكبر بها على الناس، القاسي القلب!.

ولا يعني هذا التهوين من شأن العبادة، بل القصد حماية العبادة الحقيقية، والتحذير من العبادة المزيفة، وتعليم للعباد ألا يغتروا بأنفسهم وبما قدموا، وتحريض لهم على التعلق بالله – تعالى -، وليكونوا كما قال ربنا في وصف عباده الصالحين: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾[3] [4].

---

(١) "مسند الشهاب"، للإمام القضاعي محمد بن سلامة بن جعفر، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٦م، ج٢، ص ٢٩٠، رواه ابن المبارك،، ومرجع "ركائز الإيمان بين العقل والقلب"، ص١٢٢. (*)(الحكم العطائية)،شرح ابن عباد ،ص ٦٢.

(٢) رواه محمد بن نصر في كتاب الصلاة من رواية عثمان بن أبي دهرس مرسلا، ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبيّ بن كعب، وإسناده ضعيف. راجع: تخريج أحاديث الإحياء،ج١/ ٣٣٩، ،وانظر: ركائز الإيمان، ص١٢٣.

(٣) سورة المؤمنون: آية رقم ٦٠ .

(٤)"ركائز الإيمان بين العقل والقلب"، ص ١٢٣ ـ ١٢٥. (*) (الحكم العطائية) ،شرح ابن عباد ، مرجع =

٩ـ أخطـاء العابديـن:

عن العابدين وأخطائهم كانت حكمة ابن عطاء الله: "من علامة اتباع الهوى: المسارعة إلى نوافل الخيرات، والتكاسل عن القيام بالواجبات". (*)

وقد وضح الإمام ضرورة تنظيم جهود العابدين، حتى لا تقل في ناحية، وتكثر في ناحية أخرى، ويجب إبراز الفروض أولاً، حتى لا تضطرب الأوضاع، وتختل الموازين، وتتبدد الجهود هباء، وينبغي أداء الواجبات أولاً.

لذا حرص علماؤنا على وضع الحدود مكبرة بين الفروض والنوافل، حتى لا يقع المسلم في تقصير مخل، وهو يحاول إرضاء الله بعمل لم يوجبه عليه.

وابن عطاء الله يعد من اتباع الهوى إيثار نافلة خير على واجب قائم.

وذكر الإمام نماذج رآها لمن غفل عن هذه الحكمة الواجبة، منهم من حج عدة مرات، وينوي أكثر من ذلك مرات، غافلاً عن فروض أخرى، وليته تتبع الثغرات الشائعة في مجتمعنا، وقام بسدادها، فهذا أقرب إلى مرضاة الله وأدنى إلى الصواب، وأبعد عن أهواء النفس.

إن نفقات حجة واحدة من هذه النوافل تكفي لدفع نفقات الدراسة لطلاب فقراء، وهم أولى، وتكفي لرفع الحجز عن أمتعة نفر من الغارمين المعسرين، وهم أولى، وتكفي لطبع كتب دينية نافعة وتوزيعها بالمجان، وذلك أجدى... الخ.

وصدق في قوله: "إن إنقاذ أمتنا من الجهل والفقر أوجب من إشباع رغبة نفسية، في متابعة الحج والعمرة، هذه فريضة، وتلك نافلة!" [1].

وطالب أصحاب المال الراغبين في أداء نوافل من حج وعمرة، بدعم الاقتصاد الوطني الإسلامي، وإغلاق الباب أمام المال الأجنبي المفسد لبلادنا، والناهب لثرواتنا، والمتحكم في سياستنا!".

- فالجهاد الاقتصادي صنو الجهاد الحربي، بل إن لقاء العدو في ميدان الدم يجيء

=

سابق،ص٧٧.

(١) (ركائز الايمان)مرجع سابق ،ص ١٣٩.

رؤية الشيخ الغزالي للتصوف ودوره وواقعه ٢٣/ ٠٤/ ١٤٤٠

مرحلة أخيرة، بعد كفاح طويل في عالم المال والمعرفة والدعاية والبذل [1].

وأورد الإمام حديثاً للنبي -ﷺ- ينظم العلاقة بين الفرائض والنوافل، عن ابن عباس، - رضي الله عنه -، قال فيه الرسول- ﷺ-: «حجة خير من أربعين غزوة، وغزوة خير من أربعين حجة، يقول: إذا حج الرجل حجة الإسلام، فغزوة خير له من أربعين حجة، وحجة الإسلام خير من أربعين غزوة» [2]. وفي رواية أخرى عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال الرسول فيها: «حجة لمن لم يحج خير من عشر غزوات، وغزوة لمن قد حج خير من عشر حججج» [3].

١٠.لا تنخدع عن حقيقتك:

تحت عنوان "لا تنخدع عن حقيقتك"، كانت حكمة ابن عطاء الله: "الناس يمدحونك، لما يظنونه فيك، فكن أنت ذاماً لنفسك، لما تعلمه منها". (*)

وفي شرحه أوضح الإمام وجوب أن يكون موقف المسلم من نفسه ثابتاً، يفتش عن عيوبها، لينقيها منها، ويصوب أخطاءها، ويكمل نقائصها، ولا يغتر بثناء الناس ومدحهم له، عن حقيقة نفسه وأمراضها، ويسأل ذاته: "هل أغش نفسي-، لأن الله سترني، فانطلقت ألسنة الناس تمدحني؟، ما يفعل هذا عاقل؟!".

وحقاً، "أجهل الناس من ترك يقين ما عنده، لظن ما عند الناس".

وذكر أن الرجل من الصالحين إذا مُدح كان يقول: "اللهم اغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني خيراً مما يظنون".

وهذا ادعاء من ينصف نفسه، ويخشى ربه! [4].

---

(١) "ركائز الإيمان بين العقل والقلب"، ص ١٣٨، ١٣٩.

(٢)لم أقف عليه بهذا اللفظ، ولكن وجدت حديثا أخرجه سعيد بن منصور في سننه عن أبي العالية بلفظ: حجة خير من مائة غزوة، وغزوة خير من مائة حجة » كتاب الجهاد، باب ما جاء في الغزو بعد الحج – حديث رقم:٢١٦٧.

(٣) سنن الترمذي الجامع الصحيح،كتاب: الذبائح، أبواب: صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، حديث رقم:٢٤٤١،وانظر: مراسيل أبي داود - باب في فضل الجهاد، حديث:٢٨٢، وهو في ضعيف الجامع برقم: ٢٦٩٢.(*) (الحكم العطائية)،شرح ابن عباد ،ص٦٢.

(٤) "ركائز الإيمان....."، ص ١٤٢.

١١-في محاسبة النفس:

طالب بالعناية بالإخلاص الكامل لله –تعالى–، وابتغاء وجه الله دون عرض الدنيا، ولا وجوه الخلْق، وقيام العلاقة بالناس تعاوناً على الحق، لا تناصراً على الأغراض، أو تجمعاً على الشهوات والحظوظ النفسية.

فإذا نفر منه الناس، أو أعرض عنه العامة فلينظر: كيف صلته بالله، فإن كان طيب النفس بها، قرير العين بتوطيدها، فلا عليه لو تنكرت له الدنيا كلها!.

"فما سخط العبيد بجنب رضا السيد"!".

هذه المعاني العالية تضمنتها حكمة سيدنا ابن عطاء الله: "متى آلمك عدم إقبال الناس عليك، أو توجههم بالذم إليك، فارجع إلى علم الله فيك، فإن كان لا يقنعك علمه فيك، فمصيبتك بعدم قناعتك بعلمه أشد من مصيبتك بوجود الأذى منهم"(*). وجعلها الشيخ الغزالي تحت عنوان "في محاسبة النفس" [1].

١٢-اعرف حقوق سيدك:

إن العبادة الصحيحة أن يقوم العبد بين يدي الله، والعبد عبد، والرب رب، كما يقول الإمام الغزالي: "وأنت أنت، وهو هو، أنت أنت بحقيقتك العارية، من غير دعوى، ولا تزيُّد، وهو هو، بذاته القدس، من غير انتقاص ولا إفك".

لكن النفس الإنسانية قد تلجأ إلى الخداع والتمويه، فيؤثر الكبرياء على التواضع، ويزعم أنه مستغنٍ بنفسه عن عناية السماء، ويأبى التذكير بفقره وحاجته لله.

وهذا أمر يمقته الله، وينزل عقوبته بصاحبه.

إن الله يقترب برحمته ممن يقفون عند منازلهم الإنسانية، ويوقرون ربهم سراً وعلانية، ويخاطب كل مسلم: اعترف في ساحته بعجزك يمنحك القوة، اعترف في ساحته بذلك ينضِّر وجهك بالكرامة، ابرأ من حولك وطولك إلى حوله وطوله، يهبك سلطاناً في الأرض، ويكفل لك النصر والتوفيق والنجاح، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ

(١) "ركائز الإيمان....."، ص ١٤٩، ١٥٠، ١٥١. (*) (الحكم العطائية)، شرح ابن عباد، ص٨٣.

رؤية الشيخ الغزالي للتصوف ودوره وواقعه ٢٣/ ٠٤/ ١٤٤٠

وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾[1]

هذه المعاني الرائعة جاءت في كلمة وحكمة ابن عطاء الله: "تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه، تحققْ بذلك يمدك بعزه، تحققْ بعجزك يمدك بقدرته، تحققْ بضعفك يمدك بحوله، وقوته"،(*). ووضع لها الغزالي عنواناً مناسباً: هو: "اعرف حقوق سيدك" [2].

(١) سورة الحديد: آية رقم ٢٨ .

(٢) "ركائز الإيمان....."، ص ١٤٣ ـ ١٤٥ . (*) (الحكم العطائية)، شرح ابن عباد ،ص ٧٤.

رؤية الشيخ الغزالي للتصوف ودوره وواقعه ٢٣/٠٤/١٤٤٠

خـاتمـة

إن علينا أن نبقي التصوف محضناً تربوياً روحياً في المحل الأول، وتنمية حميمة للشخصية المسلمة، مروراً بالتخلي، سعياً إلى التحلي والتكامل، كي تتكون الأمة من مجموعة لبنات قوية، شخصيات قوية، طاهرة النوايا والأهداف[1]. وصدق من عرف التصوف بأنه " الدخول في كل خلق سنى، والخروج من كل خلق دنى"![2].

وينبغي إبقاؤه مؤسسة تشيع الآداب وصيغ السلوك الراقية في: الصحبة والسفر، والأكل، والنوم، والحديث، والكسب، وطلب الرزق، وطلب العلم أيضاً، مع الزهد عما في أيدي الناس، واللجوء إلى الله، والغنى عما سواه.

ومن الضروري جعل التصوف الراشد وسيلة للإصلاح العام، وتدريباً عملياً على المشاركة في خدمة الخلق، ورعاية المرضى والمحتاجين، وإشاعة المؤسسات التي تعين المجتمع على النهوض بواجباته نحو أفراده كافة.

وأخيراً، من الأهمية قيام التصوف الحكيم بالتصدي والمقاومة لموجات الفساد العارمة، ومن وراءها من المفسدين، وعبودية المال، والمتاع الدنيوي، والمظهرية وحب الشهرة والتصدر بلا استحقاق، بحيث يكون حداء رقيقاً نحو يقظة روحية، تحيي موات القلوب، و تجدد الإيمان في الصدور [3].

وهذه أمور ينصح بها علماء كبار، ليقوم التصوف بدوره الكبير في إحداث نهضة روحية وخلقية، حتى تواصل أمتنا رسالتها الحضارية، وأداء أمانتها نحو نفسها أولاً، ثم العالم من حولها.

أولا: توجيه العناية إلى نشر الفقه، وأحكامه، وأسراره بين عوام الصوفية، لتصحيح العقيدة، وتزكية العمل، وترقية الوجدان، وتصحيح العبادة، واستقامة

---

(١) أ.د/ حسن الشافعي، وأ.د/ أبو اليزيد العجمي، " في التصوف الإسلامي"، ط١، ٢٠٠٧م، دار السلام القاهرة، ص ٧-٨.

(٢) أبو نصر، عبد الله بن على السراج، "اللمع"، حققه وقدم له وخرج أحاديثه دعبد الحليم محمود وطه عبدالباقي سرور ،ط دار الكتب الحديثة بمصر، ١٩٦٠ ، ص٤٥.

(٣) "في التصوف الإسلامي "،مرجع سابق ص ٢٤ ـ ٢٥.

الأعمال، والعناية الخاصة بنشر مدارس التعليم الشرعي في الحركات الصوفية، لتخريج قيادات عالمة.

ثانيا: صرف الجهود وتركيزها على التربية الروحية الإيمانية والأخلاقية، وترك الاجتماعات والاحتفالات والإجراءات التنظيمية الخالية من هذه التربية.

ثالثا: البعد عن المظاهر الزائفة، وإيثار العفاف والصدق.

رابعا: مقاومة البدع المخالفة للسنة النبوية الشريفة، والشريعة الهادية، دون هوادة، بحكمة وموعظة حسنة، وبيان شاف كاف مقنع.[1]

وفي النهاية أدعوالله أن يتقبل البحث ،

وأن ينفع به، وأن يحشرنا مع الصالحين المصلحين

والحمد لله رب العالمين

(١) في التصوف الإسلامي، مرجع سابق ص٩٢.

فهـرس البحـث

الموضـــــــــــوع	الصـ فحة
١ ـ المقدمـــة	٢-٤
٢ ـ التمهيد عن :نبذة عن سيرة الشيخ محمد الغزالي وصفاته	٥- ٢٠
٣ ـ المبحث الأول: أهمية الإيمان بشمول الإسلام وأهمية تكامل الشخصية المسلمة، ويتضمن مطلبين:	
المطلب الأول: أهمية الإيمان بشمول الإسلام	٢١- ٢٧
المطلب الثاني: أهمية تكامل الشخصية المسلمة	٢٨- ٣٢
٤ ـ المبحث الثاني: أهمية علم التصوف، أو التزكية، واكتساب مقام الإحسان . ويتضمن مطلبين:	
المطلب الأول: أهمية علم التصوف ودوره	٣٣- ٤٤
المطلب الثاني: ضرورة اكتساب مقام الإحسان	٤٥- ٤٩
٥ ـ المبحث الثالث: رصد الإمام مظاهر انحراف عند بعض المتصوفة	٥٠- ٧٠
٦ ـ المبحث الرابع: التصوف الصحيح، أو الطريق إلى الله، مراحله، كما يراها الشيخ	٧١- ٨٧
٧ ـ المبحث الخامس: حكم ابن عطاء الله،أحمد نماذج التصوف الصحيح	٨٨- ١٠٠

رؤية الشيخ الغزالي للتصوف ودوره وواقعه ٢٣/ ٠٤/ ١٤٤٠

الخاتمـة	١٠١ -١٠٢
الفهرس	١٠٣
المراجع	١٠٤ -

بحمد الله

=[١]

(١) ==.

رؤية الشيخ الغزالي للتصوف ودوره وواقعه ٢٣/ ٠٤/ ١٤٤٠